الفصل الثانى

البلاغة فى الدعوة الى العبادات

قضى سيدنا رسول الله ﷺ بمكة المكرمة ثلاثة عشر عاما داعيا الى الله، يتنزل القران المكريم على قلبه الطاهر ، فينذر به قوما لدا ، ظل يدعوهم طوال هذه السنوات منذرا ومبشرا ، مجادلا ومعلما ، صابرا على اذاهم ، حريصا على انقاذهم ٠

وكان موضوع الدعوة طوال هذه الفترة يدور فى مجمله حول أمور العقيدة الاسلامية باعتبارها الأساس الذى يقوم عليه الالزام بتشريعات الاسلام كلها سواء فى ذلك العبادات أو المعاملات أو القيم الاسلامية للسلوك الفاضل ٠

فالخطوة الأولى هى تثبيت دعائم العقيدة ، وتغيير اتجاه القلوب ، وتحويلها الى الله الواحد ، فاذا تم ذلك تهيأ القلب لتلقى هدى الله ، وتفتحت النفس لقبول تشريعه ، والاستجابة لأحكامه ٠ وعلى ذلك فان المدعوين الى أداء العبادات أو الى الالتزام بأحكام المعاملات ، هم مؤمنون مذعنون ليسوا فى حاجة الى اقناع أو جدل ٠ ولكن العبادات والمعاملات مع ذلك تكاليف وواجبات ، تلزمهم بأن يبذلوا ويضحوا ، وتحل لهم وتحرم عليهم ٠ انها فى عبارة جامعة تبدل نمط حياتهم كلها فكرا وسلوكا ومشاعر وعواطف ٠

والنفس الانسانية ليست أمرا هينا تؤمر فتطيع ، ولكنها تضم أشتاتا من النوازع والأهواء ، وألوانا من الملكات والمواهب والقوى الكامنة وعديدا من الأشواق الروحية والحاجات المادية ٠ وهذا الحشد الهائل المركوز فى فطرتها لا يسير كله فى اتجاه واحد ، بل ان بعضه ينزع بها نحو التسامى والارتقاء فى مدارج الانسانية الفاضلة ، بينما ينحرف بها بعضها الآخر متدنيا فى مدارك الحيوانية الهابطة ٠ ونجد فيها الشىء ونقيضه جنبا الى جنب يتصارعان فى معركة لا تهدأ ولا تنتهى ، كل يجذبها الى ناحيته ويحقق تأثيره فيها ٠ وقد يتعاوران النصر والهزيمة ، وقد يشتد ساعد أحدهما فيحقق الغلبة على صاحبه ، ويخضعها لسلطانه ، وقد يتجاذبان فلا يستطيع أحدهما

زحزحة الآخر عن موقفه فيتعايشان فى توازن قد يطول استمراره ، وقد ينتهى عندما يحس أحدهما غفلة من صاحبه فينشط فى العمل ويستأثر بالسيطرة حتى يفيق الآخر فيعود التوازن ويتحقق الاعتدال · والنفس الانسانية هى جماع كل هذه المتناقضات ، ومستقر لجميع تلك النزعات ، تجد بها الخوف والرجاء والسماحة والشح ، والشجاعة والجبن ، والحب والكره ، والالتزام والتحرر، والايجابية والسلبية ، والجماعية والأنانية ، وعشرات غيرها من القوى والنوازع المركوزة فى الفطرة الانسانية · « ان الله قد خلق الانسان على هذه الصورة لأنه سبحانه يريده على هذه الصورة · وجعل الخير كل الخير للوجود الانسانى أن يعمل الانسان بكيانه المجتمع المترابط ، لا بأى من عنصريه دون الآخر ، ولا بالعنصرين منفصلين كل يسير فى اتجاه · انما هى فقط مسألة من يحكم هذا المزاج المترابط المكون من الطين والروح » (١) وصدق الله العظيم : « **ونفس وما سواها · فألهمها فجورها وتقواها** » (٢) ·

ومن هنا كان أسلوب القرآن فى الدعوة الى العبادات والمعاملات لا يكتفى ببيان الأحكام وتوضيحها ، على سنن البيان فى القوانين الوضعية والدساتير البشرية ، ولكنه يوجه الجزء الأكبر من عنايته الى النفس البشرية يزكى معانى الفضيلة فيها ، وينمى نوازع الخير التى تدفعها الى الاستجابة والانقياد ، وفى نفس الوقت يتوجه الى جوانب الشر فيحد من سطوتها ، ويغل من حدتها ليجد الخير سبيلا الى قيادة النفس والزامها الصراط المستقيم ·

وسندرس ان شاء الله موضوع الانفاق فى سبيل الله ، كنموذج للعبادات التى يدعو اليها القرآن الكريم ·

● **الدعوة الى الانفاق فى سبيل الله :**

الانفاق فى سبيل الله كان من الأهداف التى عنى القرآن الكريم بالدعوة اليها سواء فى العهد المكى أو المدنى · ولكن دعوته تلك مرت بمرحلتين اقتضاهما تطور المجتمع الاسلامى · وكانت المرحلة الأولى دعوة عامة الى ما تقتضيه الاخوة الدينية من بذل وتعاون فى الوفاء بحاجات المجتمع ، والمشاركة فيما تفرضه الدعوة من أعباء مالية لا سبيل الى تدبيرها الا بأن

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية ص ٣٣٢ ·

(٢) الشمس : ٧ ، ٨ ·

يجود القادرون بما تسمح به نفوسهم · وفى هذا الطور لم يحدد القرآن الكريم مقدارا يلزمهم به ولا أنواعا مالية ينفقون منها ، تاركا ذلك الى أريحيتهم واستجابتهم لما تحدثه الدعوة فى نفوسهم من حب للخير ومسارعة اليه ·

أما المرحلة الثانية فقد دعا اليها انتقال المجتمع الاسلامى الى طور جديد بعد استقرار المسلمين بالمدينة وتأسيس النواة الأولى للدولة الاسلامية وما تبع ذلك من تنظيم يحقق لها موارد ثابتة تكفى لتغطية احتياجاتها للدفاع عنها والتكافل الاجتماعى بين أفرادها ، وسائر ما يتطلبه المجتمع فى وضعه الجديد · وفى هذه المرحلة أعلنت فريضة الزكاة وأصبحت ركنا من أركان الاسلام · وبين القرآن مصارفها وأشار اشارة مجملة الى ما يجب اخراج الزكاة منه · وامتد بيان الرسول ﷺ الى تحديد مقاديرها ، وتفصيل الأنواع التى تجب فيها ·

ولكن هذا التحديد لم يكن بديلا من الدعوة العامة الى الانفاق والبذل بل كان بيانا للحد الأدنى الذى يجب أداؤه ، ولا يجوز التخلف عنه أو بذل ما دونه · وبقى باب الدعوة الى الانفاق مفتوحا يرغب فيه القرآن الكريم ببيانه المعجز وبلاغته الساحرة · وأصبحت كلمة ـ الزكاة ـ علما على هذا القدر الواجب ، واستعملت كلمة ـ الصدقة ـ استعمالا مشتركا تطلق على الزكاة كما تطلق على الانفاق التطوعى المنبعث من رغبة خالصة فى رضوان الله واستجابة للمعانى الكريمة التى غرسها الاسلام فى النفوس ·

وللمال فى نفس الانسان منزلة تجعله حريصا عليه ساعيا الى الاستكثار منه وحيازته وليس هناك حد تشعر النفس معه بالشبع والاستغناء، اذا تركت دون تزكية وتهذيب ، بل المشاهد انه كلما كثر المال لدى الانسان ازداد نهمه اليه وحرصه عليه · وصدق رسول الله ﷺ فى تصويره لذلك بقوله « لو كان لابن آدم جبل من ذهب لتمنى الثانى » وقديما شبه الحكماء الدنيا بالماء المالح كلما ازداد الانسان منه شربا ازداد ظمأ · ذلك لأن المال يشبع فى النفس غرائز هى جزء من طبيعتها كحب التملك والسيطرة والاستيلاء ، ويحقق للانسان اشباع حاجاته ويؤمن مستقبله ويطمئنه على مصير ذريته · وكل هذه الأمور مشاعر طبيعة جعلها الله جزءا من الكيان البشرى لتدفعه الى العمل والكسب وعمارة الأرض واستمرار الحياة وتطويرها ، ولكن الخطر يكمن فى أن تستأثر هذه الغرائز بتوجيه الانسان ، وتقوده الى ما يشبعها دون أن تترك فرصة لجوانب أخرى فى النفس لتحدث التوازن وتقف الانسان عند حد الاعتدال ، وايتاء كل ذى حق حقه·ففى النفس بجانب تلك الغرائز الداعية

الى الشح والحرص مشاعر أخرى تحقق له أيضا اشباعا روحيا لا غنى له عنه ، كالشعور بالمجتمع وحقه عليه والرغبة فى اكتساب الحمد وحب الآخرين ، والحرص على الذكر الطيب والسمعة المرضية وما يحققه البذل من شعور بالرضا والارتياح · وفوق ذلك كله ما يدفع اليه الشعور الدينى من ارضاء الله ، والطمع فيما عنده من ثواب هو خير وأبقى للذين آمنوا ، وما يشيعه هذا الشعور من توكل على الله ، ووفاء بحق النعمة عليه ، واطمئنان الى رعايته له ولذريته · هذه المعانى وتلك تتصارع فى النفس ، ويتسم السلوك الانسانى فيما يتعلق بالتصرف المالى بنتيجة هذا الصراع ولمن تكون الغلبة فيه ·

وهنا يأتى دور الدعوة القرآنية وسلاحها هو البلاغة فى تزكية معانى الخير فى نفس الانسان ودعمها ، وعلاج أدواء النفس ، وتخليصها من المعوقات التى تحجبها عن الخير وتحبط عملها من شح وطمع ومن واستعلاء وتفاخر وغيرها ، ولا تكتفى بأن تسوق الأوامر وتبين الأحكام ، فما كان ذلك وحده كافيا فى تحقيق الاستجابة والانقياد ، بل نرى القرآن الكريم يوجه عنايته الكبرى لطب النفوس وعلاج القلوب · فهو يدعو منذرا ومرغبا ، كاشفا عن الدوافع النفسية وراء السلوك مزينا لحب الخير ، منفرا من الشر ·

ولعل مصداق ذلك ما سنلمسه فيما سندرسه من نصوص ، وأن بيان الأحكام لم يستغرق سوى آيات معدودة منها وبجانبها الكثرة الوافرة من النصوص التى تتجه الى النفوس فتروضها على الطاعة وتدفعها الى العطاء · ولنبدأ فى دراسة النصوص ·

● **أسلوب تزكية النفس :**

قال تعالى : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم · الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون · قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم · يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين · ومثل الذين ينفقون**

أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير • أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون • يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد • الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم • يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب • وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار • ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير • ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون • للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فان الله به عليم • الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١)

تبدأ هذه الآيات بالدعوة الى الانفاق فى سبيل الله ، ولكنها لا تعمد فى دعوتها الى أسلوب الأمر والالزام بل الى أسلوب الترغيب واستجاشة المشاعر بتصوير المعنى فى صورة شاخصة تستهوى الوجدان وتستميل القلوب • ثم تمضى الآيات تنقب فى خفايا النفس الانسانية عن الأدواء التى تحبط الصدقة وتحرم من الأجر ، بل تجعل الامتناع عنها أصلا ، والاكتفاء برد السائل ردا جميلا • أسلم عاقبة من ايتائها مع اتباعها بما يحبطها من المن والأذى • ثم تمضى الآيات فى تأكيد هذه المعانى معقبة عليها بالدعوة الى توخى الطيب فى الانفاق والتذكير بفضل الله ، محذرة من تخذيل الشيطان وما يلقيه فى النفس من معان تصد عن الخير مخافة الفقر والحاجة ، وأخيرا تتحدث عن بعض مصارف الصدقة وترسم صورة لطائفة هم أولى من يوجه اليهم البر،ويستحق

---

(١) البقرة : ٢٦١ ـ ٢٧٤ ••

العون ، ثم يأتى ختامها مؤكدا لبدئها مذكرا بما أعده الله من أجر للمنفقين فى سبيله « **فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ٠

ولنستعرض الآيات لنرى كيف عبرت عن هذه المعانى بأسلوب بليغ ٠٠

« **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة** » ٠

المعنى الذهنى ان الله تعالى يعد بأن يضاعف الأجر للمنفقين فى سبيله الى سبعمائة ضعف ، ولكن التعبير القرآنى يعرض هذا المعنى فى صورة حية كأنها ماثلة أمام عينى الناظر يتملاها بخياله فيرى الحبة تلقى فى التربة الصالحة فلا تلبث أن تكون زرعا نضيرا سرعان ما يثمر سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ان هذا المشهد الذى تصوره الكلمات يستثير فى النفس كل حواسها ويلقى فيها بايحاءاته المبهجة التى تشرح الصدر وتهيىء النفس للاستجابة وتدفعها للانقياد والرضا ٠ وواضح ما فى التعبير من تشبيه تمثيلى طرفاه الهيئة المنتزعة من نفقة المنفق وما يترتب عليها من الأجر الجزيل ، والهيئة الحاصلة من بذرة الحب تستنبت فى التربة الصالحة فتنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ٠ ويلاحظ ما فى النظم من ايجاز بالحذف والتقدير مثل نفقتهم كمثل حبة وذلك استغناء بدلالة المقام عليه كما يلاحظ ما فيه من مجاز عقلى فى اسناد الانبات الى الحبة والمنبت هو الله ولكنه أسند الانبات للسبب اشارة الى أهمية السبب فى وجود الفعل وذلك لأن الحبة تقابل الصدقة فاذا أسند اليها الانبات كان ذلك ايماء الى أهمية الصدقة باعتبارها سبب الأجر فى تحققه للمتصدق ٠ وكذلك التعبير بـ « **سبيل الله** » عن كل ما فيه رضا الله سبحانه على سبيل الكناية ، فكل جهة الانفاق عليها يرضى الله تعالى فهى فى سبيله ٠ والكناية أبلغ لتصويرها للمعنى وابرازه وتأكيده بالاضافة الى ما فيها من ايجاز اذا قورنت بالتعبير الحقيقى عن المعنى ٠

« **والله يضاعف لمن يشاء** » المعنى : ان الله يضاعف الأجر هذه المضاعفة أو يزيد لمن يشاء على حسب ما يعلمه سبحانه من اخلاصه فى الانفاق ٠ وفيه زيادة ترغيب فى الانفاق وتنبيه الى أسباب مضاعفة الأجر حثا على اخلاص النية والتوجه بالصدقة خالصة لوجه الله تعالى أملا فى فضله الواسع ٠

« والله واسع عليم » · تأكيد للمعانى السابقة ، فالله واسع لا يضيق فضله عن مضاعفة الأجر ولا ينفد ما عنده من الخير وهو عليم بنية المنفق مطلع على خفايا النفوس فيجزى كل انسان حسب علمه بحاله · وللتأكيد دوره الكبير هنا اذ يزيد اطمئنان القلوب الى تحقق الوعد فتستجيب وتنقاد ·

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم » ·

ان هذه المضاعفة فى الأجر ليست لكل منفق ، بل هى خاصة بمن كان انفاقه خالصا لوجه الله ، لم يدفع اليه رياء أو حب للتسامع والفخر أو غيره من الدوافع التى تبطل الصدقة وتذهب ثوابها ، ولم يتبعها بالمن بها على آخذها أو ايذائه بها · والمن هو التذكير بالنعمة وأن له فضلا على آخذها ·

والأذى كل مايؤذى الآخذ بأن يتطاول عليه بسبب نعمته عليه مثلا · هؤلاء الذين انفقوا بهذه النية الخالصة ولم يتبعوها بمن ولا أذى لهم أجرهم الذى وعدوا به فى الآية السابقة ·

ويلاحظ ما فى التعبير بـ « ثم » للتنبيه على التفاوت بين الصدقة التى يترتب عليها المضاعفة فى الثواب ، وتلك التى يتبعها المن والأذى ، فهى للتراخى المعنوى · كما يلاحظ تكرار الاسناد فى قوله تعالى « لهم أجرهم » وتقييد الأجر بقوله « عند ربهم » وما فيه من تأكيد وتعظيم وتشريف · واختيار لفظ ـ الرب ـ واضافته الى ضمير المنفقين يلقى فى النفس اطمئنانا وثقة فى رعاية الله وتحقيق وعده · وذلك كله مما يستدعيه مقام استمالة القلوب وحثها على الطاعة ·

« ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » · اكمال لبيان ما يترتب على الانفاق من ثمرات طيبة . مبالغة فى استمالة القلوب ، فليست مضاعفة الأجر كل ما يناله المنفق . بل له بجانب ذلك أن يأمن فلا يخاف ويرضى فلا يحزن ·

والمعنى : أنهم لا يعتريهم ما يوجب الخوف أو الحزن · ولكن كيف يؤدى الانفاق الى ذلك ؟ وما سر النص على نفى الخوف والحزن عن المنفق ؟

يتضح هذا عندما نتذكر الحكمة فى تشريع الانفاق فى سبيل الله ، سواء فى ذلك فريضة الزكاة أو الصدقات التطوعية الزائدة عليها · ان تشريع الانفاق قصد به اصلاح المجتمع والربط بين أفراده برباط من التراحم والمودة ، وقيام حياته على التكافل والتعاون ، وتزكية نفس المعطى والآخذ فى نفس

الوقت وتطهيرها من المشاعر التى تورث الأحقاد ، وتنبت التمزق والصراعات بين الفقراء والأغنياء انها تطهر نفس المعطى من الشح والأثرة وتستجيش فيها المعانى الانسانية التى تربطه بأخيه ، وتذكره بنعمة الله عليه ، وأن ما ينفقه هو من مال الله الذى استخلفه فيه لينفقه فيما شرعه الله من أبواب البر والخير سواء كان الانفاق على نفسه أو غيره · وهذه التزكية وتلك المعانى تملأ القلب رضا ، وتشرح صدر المعطى وتجعله يحيا يغمره شعور بتوفيق الله له ، ورضاه عنه ·

أما الآخذ فان الصدقة التى تقدم اليه ـ دون من أو أذى ـ تسد حاجاته وتملأ نفسه رضا عن أخيه ، وتطهرها من أدواء الحقد والحسد ، وتوثق صلة الاخاء التى تربطه بأخيه ، وتستوجب التعاون والتراحم ، فلا يضمر له شرا ولا يدبر له أذى ، وبذلك يأمن الغنى ، فقد حرس ما فى يده من نعمة بتأليفه القلوب ، واكتساب ودها ، ووضع نفسه حيثما كان بين اخوة يرى فى نظراتهم دلائل الحب ، وفى تصرفاتهم ما ينبىء عن الثقة والاطمئنان فهو آمن بينهم سعيد بهم راض عنهم راضون عنه · وهكذا يؤتى الانفاق ثماره الطيبة فى الدنيا والآخرة ، ويعالج الاسلام الداء العضال الذى عجزت كل النظم والفلسفات عن أن تجد له طبا ، وانتهى بها الأمر الى ما نراه فى عالم اليوم من صراع بين الطبقات يفجر الثورات التى تأكل الأخضر واليابس وتقضى على كل القيم الانسانية وتغرس الخوف فى القلوب وتملأ النفوس أسى وحزنا ·

« **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** » تأكيد للمعنى السابق للاهتمام به اذ هو الفيصل فى قبول الصدقة عند الله أو ابطالها ، وتقرير لوجوب خلو الصدقة من المن والأذى ليترتب عليها الوعد الكريم · والمعنى : ان الرد الجميل ـ بالكلمة الطيبة دون اعطاء ، والصفح لما يكون قد بدر من السائل ـ خير من الصدقة التى يتبعها الأذى · والأولى أن تكون الخيرية هنا بالنسبة للسائل · ليتحقق ما تدل عليه الصيغة من التفاوت فى الخير · فالصدقة التى يتبعها الأذى فيها فائدة للآخذ لأنها تسد حاجته ، ولكن الرد الجميل خير منها فى نفس السائل ، لأنه يطيب نفسه ، ولا يجرح مشاعره ، وفى هذا تنبيه على ان المهمة المرجوة من الانفاق هى أثرها النفسى قبل فائدتها المادية ، وهذا يؤكد ما أشرنا اليه من دوره فى اصلاح المجتمع وترابط أفراده ·

« **والله غنى حليم** » · هذا تذييل يوحى بسخط الله تعالى ووعيده لمن يمن بصدقته ويؤذى آخذها وذلك تنفيرا من هذا الفعل السيء فالمعنى : ان الله غنى عن صدقة المنان المؤذى وقادر على اغناء السائل ورزقه دون حاجة الى صدقة

المتصدق ، وانه حليم لا يعجل بالعقوبة لأصحاب المن والأذى ، وان كانوا يستحقونها لعدم تأدبهم بأدب الاسلام ، ونسيانهم ان ما يبذلونه هو مال الله · ولا فضل لهم فى امتلاكه ·

« **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا** » ·

« **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** » ها هى ذى الآيات الكريمة تعاود تأكيد ما قررته الآيات السابقة من أن الانفاق الموجب للأجر هو الخالى من المن والأذى ، زيادة فى العناية بالمعنى وتثبيتا له فى النفس ، وهى هنا تتخذ أسلوبا أبلغ فى التأثير وأقوى فى الدلالة ، فهى أولا تتوجه بالخطاب الى المؤمنين بعد تقرير المعنى سابقا بضمير الغائب ، وفى ذلك مبالغة فى ايجاب العمل بمقتضى النهى بتذكيرهم بالايمان الذى يقتضى الطاعة والاستسلام وهى ثانيا تنص صراحة على أن المن والأذى يبطلان ثواب الصدقة ويمحوان أثره ·

ولا تقف الآيات عند هذا الحد بل تتبعه بتشبيه أثر المن والأذى فى هذا الابطال بأثر الرياء وعدم الايمان بالله واليوم الآخر فى عدم قبول العمل أصلا لقيامه على غير أساس ، وذلك بقوله تعالى :

« **كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** » أى لا تبطلوا صدقاتكم ابطالا كابطال من ينفق ماله رياء الناس ، ولا يدفعه الى ذلك أيمان بالله واليوم الآخر فيرجو ثوابه ، أو يخشى عقابه · وليس بعد هذا تأكيد للمعنى ولا تحذير من خطورة المن والأذى ، ولا تنفير منه · وحمل على تجنبه والبعد عنه ·

ولكن القرآن الكريم لا يكتفى بهذا بل يتبعه مرة أخرى بما يزيد تقريره ووضوحه وتأكيده · فيورد مشهدين متعاقبين يصور الأول انفاق المرائى ونتيجته ويبرز الثانى انفاق المخلص وثمرته · والمشهدان بما تضمناه من تصوير مؤثر وايماءات عميقة لا يدعان مجالا للتردد فى الاختيار ، ويدفعان النفوس دفعا الى الاستجابة لأمر الله والتزام حدوده · ونستعرض المشهدين ·

المشهد الأول يصور حال المنفق رياء « **فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا** » تشبيه تمثيلى يشبه حال المنفق رياء فى عدم حصوله على جزاء لانفاقه ، بحالة حجر أملس لا ينبت ، فوقه طبقة رقيقة من تراب نزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من التراب وتركه أملس صلبا ، لم ينبت به شيء • ولننظر ما فى التعبير من لمحات موحية فالتعبير بـ « **صفوان** » وهو الحجر الأملس وما يوحى به من قساوة وجدب يناسب قلب المرائى وخلوه من معانى الانسانية والرحمة ، وأنه لا ينتظر منه أن يصدر عنه ما ينفع أو يفيد • وقوله تعالى « **عليه تراب** » اشارة الى ما يغطى به المرائى حقيقته بما يبديه من رياء بالانفاق ، ولكن هـذا كالغشاء الزائف الذى يستر به حقيقته لا يجديه نفعا فسرعان ما ينكشف ويتبدد ولا يجنى من ورائه خيرا •

« **لا يقدرون على شيء مما كسبوا** » أى لا يحصلون على ثمرة انفاقهم ولا يجدون له ثوابا عند الله • ولما كان الغرض المسوق له الكلام أصلا هو تشبيه أثر المن والأذى فى ابطال الصدقة بأثر الرياء ، فان هذا المثل المبين لحال المرائى وأنه لا يجد ثوابا لصدقته ، ينطبق على من يمن بصدقته ويؤذى فانه لن يجد أيضا ثوابا لانفاقه وصدقته • وهكذا ينهى القرآن أبلغ نهى وآكده عن المن والأذى •

« **والله لا يهدى القوم الكافرين** » • « تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤكد له ، وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولابد للمؤمنين أن يجتنبوهما » (١) •

وذلك مبالغة فى النهى عن هذه الجريمة التى يترتب عليها كل هـذا الشر •

أما المشهد الثانى المقابل للأول فهو يصور حال من ينفق ابتغاء وجـه الله • حتى تكون الموازنة واضحة •

« **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل** »

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ـ جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ •

انه تشبيه لحـال المنفقين ابتغاء وجه الله وما يترتب على انفاقهم من مضاعفة الجزاء بحال جنة بربوة عالية نزل عليها المطـر العظيـم فازدهرت وأخرجت ثمرها مضاعفا · فان لم يصبها المطر الكثير فان القليل منه كاف فى اثمارها لطيب تربتها وكرم منبتها · وهكذا يؤدى التمثيل دوره فى ايضاح المعنى وتصويره فى صورة مؤثرة قوية · بما تشمله من قيود فى المشبه به تزيد الصورة تأثيرا وايحاء يستميل النفس ويستهوى الوجدان ·

ولنتأمل قوله تعالى « **ابتغاء مرضاة الله** » وما يشير اليه من أن الدافع هنا طلب رضاه وأن ذلك هو سبب مضـــاعفة الأجر ، ويقابل ما هناك من أن الدافع هو الرياء وهو سبب ابطال الصدقة وضياع الأجر · ثم ان قوله تعالى « **وتثبيتا من أنفسهم** » ومعناه تثبيتا للايمان فى نفوسهم يشير الى أن حكمـة الانفاق للمنفق هى تزكية النفس وتطهيرها من البخل وحب المال ، واثبـات أن داعى الايمان لديها أقوى من كل الدواعى الأخرى من الأهواء والشهوات·

والتعبير ـ بالجنة ـ وما يلقيه فى النفس من شـعور بالبهجة والسرور الذى يحدثه ما فيها من جمال ونماء وخير ، وتقييد الجنة بانها « بربوة » زيادة فى استكمال جوانب الحسن فيها فان أشجار الربى تكون أكثر ثمرا وأبهى منظرا « والجنة » هنا تقابل « الصفوان » هناك · حيث الجدب والقساوة العقيمة ثم تنويع المطر بين الوابل والطل ، وما يشير اليه من أن النفقة جلت أو قلت تؤتى ثمرها مضاعفة فى الأجر بصدورها عن نية طيبة ، كما يضاعف المطر الكثير أو القليل ثمر الجنة لطيب منبتها وكرم أصلها ·

« **والله بما تعملون بصير** » · لا يخفى عليه شىء من أعمالكم وسيجزيكم بما يعلمه من حقيقة دوافعكم الى الانفاق ، وهى فاصلة تلخص مغزى المثلين بما تتضمنه من ترغيب فى الاخلاص وتحذير من كل ما يحبط الانفاق من رياء أو من أو أذى ·

« **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيـه نـار فاحترقت** » ·

هذا مثل آخر يصور عاقبة المن والأذى فى احباط الأجر ، وابطال الصدقة يعرضه القرآن الكريم كعادته فى تصوير المعانى فى صورة تجمع كل عناصر التأثير والاستهواء · والمعنى مجردا دون تصوير يمكن التعبير عنه بأن يقال :

ان الذى يتبع صدقته بالمن والأذى ، سيفاجأ يوم القيامة ـ وهو يومئذ أحوج ما يكون الى ثوابها الجزيل ـ بأنه قد أبطل ثوابه بما قدمه من المن والأذى ، ولن يملك هناك سوى الحسرات والندم يوم لا يغنى ذلك عنه شيئا · فلننظر كيف صور القرآن هذا المعنى المجرد ·

« **أيود أحدكم** » انه يبدأ بهذا السؤال المثير للاهتمام ثم يصور الصدقة بـ « **جنة** » وهى تعنى الحديقة ذات الأشجار الملتفة المتكاثفة ، وهى أغلى ما يملكه الانسان وأحبه الى النفس ، وأكثره اثارة لنشوتها وبشرها ، ثم يقيد الجنة بأنها « **من نخيل وأعناب** » ـ لأن هذين الجنسين الشريفين الجامعين لألوان المنافع هما الأصل بين أشجارها ، ثم يزيدها قدرا وجمالا بأنها « **تجرى من تحتها الأنهار** » ليجتمع لها كل شرائط الحسن والابداع ، ثم يضيف الى قدرها ونفاستها بأن « **له فيها من كل الثمرات** » هذه هى الصدقة فى نمائها وما توجبه من أجر صورت بهذه الصورة المبهرة · وبعد ذلك يصور شدة حاجة صاحبها اليها وتطلعه الى ما توفره له من عطاء ، فيقول « **وأصابه الكبر** » فلا يمكنه انشاء غيرها ، ولا تحصيل رزقه من طريق آخر لضعف قوته ثم يضيف ما يؤكد حاجته « **وله ذرية ضعفاء** » لا يقدرون على الكسب أيضا وهو القائم بأمرهم · وكذلك صاحب الصدقة هو فى حاجة الى ثواب صدقته حاجة هذا الشيخ الفانى المثقل بالأعباء · وفجأة يفقد صاحب الجنة كل شىء وهو فى أشد حاجته اليه « **فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت** » اعصار لا يبقى شيئا وتلتهم ناره كل شىء · أى حسرة وأسى يتجرعها هذا المسكين ؟ وأى ألم يعصف بكيانه ؟ فكذلك حال من يبطل صدقته سيتجرع غصص الحسرة يوم يجد ثواب صدقته قد ذهب به منه وأذاه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى بقلب سليم · هذا ولفظا « اعصار » و « نار » وما فيهما من جرس قوى يوحى بالعنف والقوة المدمرة · ثم تنكيرهما الذى يطلق خيال السامع فى تخيل ما يوحى به ذلك التنكير من عنف وشدة وابادة · ثم الجمع بين الاعصار و « النار » وكل منهما كاف فى ذاته لتدمير الجنة · كل هذه الخصائص توحى بما يلائم الموقف من ترهيب وتخويف · ثم التعبير بالفاء فى « فاحترقت » الذى يوحى أيضا بسرعة الاحتراق ·

« **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » مثل هذا البيان الواضح كأنه مشاهد محس يبينه الله لكم لعلكم تعملون عقولكم وتتفكرون فى عواقب أعمالكم فتنتهوا عما يبطلها ويمحق أجرها ، قبل أن يفوت الأوان · وهل هناك عاقل يريد أن يورد نفسه هذا المورد المهلك ؟

والصورة كما نرى غنية عن كل تعليق يشير الى حسنها أو يبين رقتها وتناسقها وما فيها من ايحاء يستهوى النفوس وتتفتح له القلوب مبتهجة راغبة فى التصديق ، ثم هلعة مفزعة من ضياع كل هذا الخير ٠

وهكذا يعالج القرآن الكريم المعانى حتى تخالط القلوب وتستقر فى الوجدان فيكر عليها مبينا أولا ثمرة الانفاق مصورا قدره ومضاعفته ثم يجعل استحقاقه مشروطا بخلو الانفاق من المن والأذى وبأن يكون خالصا لوجه الله ، ثم ينهى عن ابطال الأجر بالمن والأذى ثم يشبه أثرهما فى ذلك بالرياء ثم يرسم صورة لما يصنعه الرياء بالعمل الذى شبه به المن والأذى ويعقب على ذلك بصورة أخرى لمن ينفق ابتغاء وجه الله ، واستجابة لداعى الايمان ، ثم يختم ذلك كله بهذا المشهد الذى يوقظ الغافل ويحذر المتهاون وينبه على الخطر ٠ وهذا كله يورده القرآن عن معنى يمكن التعبير عنه فى كلمات معدودة ، ولكن الموضوع ليس أمرا أو نهيا بل هو تزكية للنفوس ، واصلاح للسرائر ، وطب لأدواء القلوب ،

وينتقل النص الكريم بعد هذا الى غرض جديد :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » ٠

الآية الكريمة تتحدث عن أمرين :

أولهما : بيان ما تجب فيه الزكاة أو الصدقة وقد أجملته فيما يكسبه الانسان من الأموال وما يخرج من الأرض من الزروع والثمار والمعادن وغيرها ، ولم تعن الآية بتفصيل ذلك فلم تذكر أنواع الكسب أو الزروع وغيرها ولم تحدد المقدار الواجب فى كل منها ، وتكفلت السنة المطهرة بذلك كله ، لأن هذه مهمة يسيرة فلا يتصور أن يحتاج مسلم اقناع بمقدار ما يخرج أو يجادل فيما يجب فيه الاخراج ٠ وهذا هو شأن القرآن الكريم فى كل ما يتصل بالتشريع والتقنين ٠

وثانيهما : علاج داء آخر من أدواء القلوب ٠ وأدواء القلوب لا يكفى فى طبها أمر أو نهى ، بل لابد معها من التعامل مع القلب بما يؤثر فيه ويستل جذور الداء منه ويهيئه للقبول والاستسلام ٠ وهذا هو السر فيما نراه من اختلاف فى أسلوب معالجة كلا الجانبين ٠ والدواء هنا هو البخل

الذى يحمل بعض المسلمين على أن يخرج صدقته من خبيث ما يملك ، ويؤثر نفسه بالطيب بخلا به على الفقير ·

واذا كانت الآية الكريمة قد أجملت بيان الأول ، فانها قد فصلت الحديث عن الثانى ثم تبعتها آيات تعززها فى تتبع جذور الداء لتقتلعها جميعها ولنتأمل النص الكريم ·

« **يا أيها الذين آمنوا** » نداء يهيىء النفوس ويشد انتباهها الى ما سيلقى عليها ، ثم تذكير بصفة الايمان ، التى تقتضى الاستجابة والطاعة · « **انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض** » · بيان لما تجب فيه النفقة وانه يشمل كل ما يكسبه المسلم وما يخرج من الأرض ، وتوضيح لوجوب أن يكون الانفاق من الطيب من ذلك دون الخبيث · ويلاحظ ما فى النظم الكريم من ايجاز بالحذف فان المعنى : ومن طيب ما أخرجنا لكم من الأرض ، والحذف هنا لدلالة الأول عليه وما فيه أيضا من ايجاز القصر حيث استوعب كل ما يكسبه المسلم من شتى أبواب الكسب وكل ما يخرج من الأرض من أنواع الزروع والثمار والمعادن فى هذه الكلمات القليلة ما كان معهودا منها على عهده ﷺ وما يستجد . فالنص شامل جامع لا يفلت منه أى مستحدث فى أى زمان ، وكله مما يوجب النص الزكاة فيه (١) ·

« **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** » تأكيد لأن تكون الصدقة من الطيب . بالنهى عن الانفاق من الخبيث تثبيتا للمعنى فى النفوس ، ويلاحظ ما فى التعبير بـ « تيمموا » من تصوير حيث يخيل الطيب والخبيث ماثلين والمنفق يقصد الى أحدهما ويترك الآخر ثم تقديم ـ منه ـ على ـ تنفقون ـ وهو متعلق به وحقه أن يتأخر عنه · والتقديم للتخصيص ، أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الانفاق عليه . والتخصيص هنا لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من انفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ انفاقه مع الطيب » (٢) ·

« **ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه** » بيان لعلة النهى عن الانفاق من الخبيث بمطالبتهم بالاحتكام الى أنفسهم ، والتفكير فيما يكون عليه الأمر اذا كان المنفق فى مكان الشخص الآخر ، وليس هناك أسلوب أحكم من

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٢١١ ·

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٩٨ ·

هذا فمن طريقه يكون احترام الانسان لشعور الآخرين ، ومعاملتهم بما يجب أن يعامل به منهم ، فلا يفعل ما لا يرضاه لنفسه · ان التعبير ينبههم الى هذا المعنى الذى يقتضيه الشعور المهذب والطبع المستقيم ، والمعنى : انكم لا تقبلون الخبيث فى معاملاتكم الا بأن تتسامحوا فى أخذه ، وتغضوا النظر عما به من نقص ، فكيف تعاملون غيركم بما لا ترضونه لأنفسكم ؟

ونلاحظ ما فى التعبير من كناية عن التسامح والتساهل بقوله : « تغمضوا فيه » وهى أبلغ لما فيها من تصوير المعنى وتأكيده ·

« واعلموا أن الله غنى حميد » تعقيب على المعنى نفسه ، بما يحمل على الاستجابة للانفاق من الطيب ، وذلك بتذكيرهم بأن الله غنى عما يبذلون وانهم حين يعطون فانما يقدمون لأنفسهم ، فليقدموا اذن الطيب وهو سبحانه حميد يحمد لكم عطاءكم الطيب ، ويجزيكم عليه ، وهو فى الحقيقة الرازق والوهاب فأى ترغيب بعد هذا الذى يوحى به التعقيب بهاتين الصفتين الجليلتين ؟

وهكذا تأتى الفاصلة لتدعم المعنى وتثبته فى القلوب ··

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » عرض للموضوع على نحو جديد مبالغة فى تقريره وتأكيده · انه يتجه الى الكشف عن الدافع الكامن وراء انفاقهم من الخبيث ، ببيان انه من وسوسة الشيطان واغرائه وتزيينه للسوء · ان الشيطان يخوفكم من الفقر اذا انفقتم أموالكم ويغريكم بالبخل ومنع الصدقات ، وأنتم تستجيبون لما يلقيه فى نفوسكم من هذه المعانى ، فتتجهون الى الانفاق من الخبيث ضنا بالطيب وايثارا لأنفسكم به · والله سبحانه يعدكم أن يجزيكم على انفاقكم مغفرة لذنوبكم وزيادة فى اموالكم ومضاعفة لها · فأى الأمرين أحق بالاستجابة له ؟ وسوسة الشيطان وتزيينه ، أم وعد الله الصادق الأكيد ؟ وهكذا يحصرهم القرآن الكريم ويضعهم امام هذا الاختيار الذى لا يملكون منه فكاكا · لابد أن يحددوا موقفهم ويختاروا بين السلوك الذى تمليه وسوسة الشيطان ، وذلك الذى يقتضيه وعد الله · والأمر بعد ذلك بين واضح · ولنتأمل النظم الكريم :

« الشيطان يعدكم الفقر » وحقيقة الوعد هو الاخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شىء ما · والشيطان لم يضف مجىء الفقر على جهته · ولم يقل انه سيفقرهم اذا انفقوا وانما ألقى فى نفوسهم أن عاقبة

انفاقهم ونتيجته هى الفقر ليخوفهم ويحملهم على البخل · وقد عبر القرآن عن ذلك بالوعد ، اما للمشاكلة لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى · أو على سبيل الاستعارة تصويرا لمبالغته فى الاخبار بتحقق وقوعه فى صورة الوعد ، كأنه نزله فى تقرير وقوعه منزلة أفعاله الواقعة حسب ارادته (١) · « **ويأمركم بالفحشاء** » أى يغريكم ويزين لكم الفحشاء كالبخل ومنع الصدقات ، والانفاق من الخبيث وعبر عن هذا بالأمر · تصويرا له فى تزيينه واغرائه ، بصورة الآمر للمأمور بفعل المأمورية · وفيه مبالغة فى بيان سطوة الشيطان وتأثيره فى نفوسهم ·

« **والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** » الوعد هنا على حقيقته · والتنكير فى المغفرة للتفخيم وبيان علو شأنها ، ويؤكد هذا اتباعها بقوله : « **منه** » فالجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للمغفرة أى كائنة منه جل وعلا · وهذا تأكيد لفخامتها · ويلاحظ ما فى التعبير أيضا من ايجاز بحذف الصفة لدلالة المذكور عليها والتقدير : وفضلا كائنا منه ·

« **والله واسع عليم** » وتأتى الفاصلة أيضا لتقرر مضمون الآية الكريمة وتلقى بايحائها القوى فى النفس لتقوى من دواعى استجابتها ورضاها فالله واسع الفضل والقدرة ، يحقق ما يعد به من المغفرة واخلاف ما ينفقون ومضاعفته ، عليم بما ينفقون وبدوافعهم الى الانفاق فيجازيهم بعلمه ولا يضيع أجرهم · وقد نلمح فيها أيضا تحذيرا مما يبطل الانفاق أو يقلل من أجره ·

« **يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب** » ·

حث على الاستجابة لما تدعو اليه الآيات السابقة من بيان لأحكام الصدقة وآدابها · ودعوة الى الاستجابة لما تمليه الحكمة وهى تعنى تقدير الأمور تقديرا صحيحا ، والادراك السليم لعللها وغاياتها ، والالتزام فى السلوك بما يهدى اليه ذلك من صائب الأعمال وصالح النيات ·

فاذا كانت الآية السابقة قد بينت أن الدافع وراء الامساك عن الصدقة أو عمل ما يبطلها هو وسوسة الشيطان واغراؤه ودعوته للفحشاء ، وان الله يعد بالمغفرة والفضل أجرا للصدقة ، فان المسلم عليه ان يستجيب لداعى

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ج ١ ص ١٩٨ ·

الحكمة ، التى تقتضى اختيار ما تكون عاقبته خيرا له فى الدنيا والآخرة ومحاربة ما يهجس به الشيطان فى النفس من معان تصد عن الخير ، وتورد المهالك ولنتأمل النظم الكريم :

« **يؤتى الحكمة من يشاء** » الحكمة هى عطاء الله ، يمن به على من يشاء من عباده ، والقرآن الكريم يبين فى كثير من آياته سنة الله فى عطائه وتوفيقه مثل قوله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين** » (١) · ومعنى ايتائها تبيينها والتوفيق للعمل بها · ويلاحظ ما فى التعبير من تقديم « الحكمة » وهى المفعول الثانى على « من » وهى المفعول الأول للعناية به · والجملة تقرير لمضمون ما قبلها ·

« **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** » · تكرار لفظ « الحكمة » بدلا من الضمير · للعناية بها والاشارة الى علة الحكم ، والتنكير فى « خيرا » للتعظيم كأنه قيل : فقد أوتى خيرا أى خير · ووصف الخير بالكثرة زيادة تأكيد لقدرها ومكانتها · والغرض البلاغى وراء كل هذا الاهتمام هو لفت أنظارهم الى ما فيها من خير حثا لهم على العمل بما تضمنته الآيات السابقة من الحكم البالغة التى تدور عليها مصلحتهم فى الدنيا والآخرة ·

« **وما يذكر الا اولوا الألباب** » تذييل للترغيب فى المحافظة على إتباع الآداب الواردة فى شأن الانفاق ، والمعنى : وما يتعظ بما أوتى من الحكمة الا أصحاب العقول التى خلصت من شوائب الجهل والركون الى الأهواء : وفيه حث لهم ليكونوا منهم ·

« **وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار** » ·

لقد دعت الآيات التى درسناها الى الانفاق بطريق الترغيب بمضاعفة الصدقة ، ثم حذرت من ابطال ثوابها بالمن والأذى وانتقلت الى علاج ما فى النفوس من شح يدفع الى تيمم الخبيث للانفاق منه ضنا بالطيب · وتأتى الآية التى معنا لتعقب على ذلك كله ببيان أنه ما من نفقة تنفقونها فان الله مطلع عليها يعلم قدرها وطريقة تقديمها وهل هى من الطيب أو الخبيث كما

---

(١) العنكبوت : ٦٩ ·

يعلم حقيقة الباعث عليها اخلاصا لله أو مراءاة للناس · وسيكون جزاؤه وفقا لعلمه سبحانه ، الذى لا تخفى عليه خافية ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، فالآية ترغيب فى الالتزام بما سبق بيانه من آداب الانفاق وتحذير من مخالفته · ثم تؤكد هذا التحذير الذى تضمنته الآية بقوله تعالى : « **وما للظالمين من أنصار** » والظالمون هنا هم من لم يلتزموا بآداب الانفاق فأنفقوا فى المعاصى مثلا أو أبطلوا صدقتهم بالمن والأذى الى غير ذلك مما نبهت عليه الآيات فهؤلاء سيقع بهم العقاب حتما وليس هناك من يدفعه عنهم · ولما كان النذر هو نوع من الانفاق يوجبه الانسان على نفسه ، ويمكن أن يتجه به الانسان الى طاعة الله أو الى معصيته أضيف الى النفقة فى الحكم بأن جزاءه تابع لما يعلمه الله عن فاعله ونيته وهدفه · فالآية كما نرى تؤكد الدعوة الى آداب الانفاق بأسلوب الترغيب والترهيب ، ولنتأمل ما فيها من بلاغة ·

« **وما أنفقتم من نفقة** » ان تنكير لفظ ـ النفقة ـ ووقوعها فى سياق النفى لتدل على عموم النفقات قليلة أو كثيرة فى حق أو باطل خالصة لله أو رياء · سلمت من المن والأذى أم لا · وكذلك الشأن فى قوله تعالى : « **أو نذرتم من نذر** » · « **فان الله يعلمه** » يلاحظ ما فيها من تصديرها بان المؤكدة · لتأكيد مضمونها ، وهو علم الله بحقيقة نفقاتهم وذلك للاشارة الى تحقيق ما يترتب عليه من الجزاء · اى أن الله تعالى سيجازيهم حتما وفقا لعلمه سبحانه · وعلى ذلك فليطمئن المخلصون ، وليحذر المتجاوزون لحدود الله التى بينها فى آداب الصدقة · وقد جمعت بذلك بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ·

كما يلاحظ افراد الضمير فى قوله تعالى « **يعلمه** » مع أنه يعود على كل من النفقة والنذر · ويمكن أن يحمل ذلك على حذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه ويكون فى الآية ايجاز بالحذف · أو على أن الافراد فيها لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بـ « أو » كقولنا زيد أو عمرو أكرمته · ولا يقال أكرمتهما ·

كما يلاحظ ما فى التعبير من ايحاء قوى ، لان المؤمن عندما يستشعر أن الله مطلع عليه عالم بخطرات نفسه فان ذلك يكسبه يقظة ضمير ، وتحرجا من أن يهجس فى نفسه خاطر رياء أو تظاهر ، ويقيم من نفسه على نفسه رقيبا حارسا يسدد خطواته ويصلح أعماله ·

« **وما للظالمين من أنصار** » تقرير وتأكيد لما تضمنته الجملة السابقة من الترهيب · والتعبير عمن تجاوز آداب الانفاق بـ « الظالمين » لأن حقيقة

الظلم هى تعدى الحدود ووضع الشىء فى غير موضعه الذى يجب أن يوضع فيه ، ولا شك فى أن المتجاوز لحدود الصدقة هو ظالم متعد · بالاضافة الى ما يوحى به التعبير من التنفير من شفاعة ما يفعله الظالمون لتحصيل الأعوان ورعاية الاصدقاء ، غير ملتزمين بحدود الشرع وآدابه ·

« ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » ·

الآية الكريمة تفصل بعض ما سبق اجماله فى قوله تعالى : **« وما أنفقتم من نفقة »** وتبين حكمه ، وهذا هو سر الفصل فيها · والصدقة اما أن تكون واجبة وهى الزكاة المفروضة ، واظهارها أفضل من سترها ، لما فيها من دفع التهمة والبعد عن الشبهة ، وليتأسى به غيره بشرط ألا يصاحب اظهارها رياء واما أن تكون تطوعية وسترها أفضل ليكون الاخلاص فيها كاملا ·

ونلاحظ ما فى النظم الكريم من ذكر **« وتؤتوها الفقراء »** بعد قوله **« وان تخفوها »** مع أن اعطاءها للمستحق واجب أيضا مع الاظهار · وذلك لأن الاخفاء مظنة الالتباس ، فقد يدعى الغنى أنه فقير ويقبل الصدقة سرا ويمتنع عن قبولها جهرا · ولهذا جاء هذا التقييد للتنبيه على تحرى حال من تعطى له الصدقة سرا · **« فهو خير لكم »** أى الاخفاء خير من الاظهار فى صدقة المتطوع · **« ويكفر عنكم من سيئاتكم »** أى الله يكفر عنكم من سيئاتكم ، أو أن الاخفاء هو الذى يكفر السيئات باسناد الفعل للسبب · اشارة الى أهمية السبب وهو الاخفاء فى تحقق تكفير السيئات حثا عليه وترغيبا فيه ·

« والله بما تعملون خبير » يعلم ما تسرون وما تعلنون ، وفيه ترغيب فى الاسرار ·

وهكذا يلون القرآن الكريم أساليبه ، ويطيل الوقوف عند التعرض لعلاج هذه الأدواء النفسية لأن الأمر فيها كما بينا لا يغنى فيه أن يأمرهم بالانفاق دون ان ينظر الى ما فى الطبيعة البشرية من أهواء وشهوات والى حاجتها المستمرة الى ما يحرث فيها معانى الخير لتستعلى على ما بها من حرص وشح وترتفع الى المستوى الكريم الذى يؤهلها لفضل الله واكرامه ، فكان لابد من هذه التربية المتأنية ، وهذا الجهد الكبير ·

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » ·

روى ابن ابى حاتم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم « انه كان يأمر بألا يتصدق الا على أهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية : « ليس عليك هداهم ... » الى آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأله من كل دين » (١) ٠

وعلى هذا فالآية الكريمة تعالج هذا الغرض وتدعو المسلمين الى أن يمتد برهم الى كل محتاج ، دون نظر الى عقيدته ، ويطمئنهم أن صدقتهم الى هؤلاء محفوظة الاجر عند الله لا يضيعها عليهم ٠ وبهذا التوجيه الكريم يرتفع الاسلام بقلوب اتباعه الى مرتبة من السمو لم تعهد فى علاقات الناس ، ولم يرتفع اليها أعظم فلاسفة الأخلاق ودعاة الاصلاح ٠

« **ليس عليك هداهم** » توجه بالخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد أنه « لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الاسلام فنزلت » (٢) والمعنى أنه ليست هداية مخالفيك واجبة عليك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم فى الاسلام ٠

« **ولكن الله يهدى من يشاء** » ان الله وحده هو الذى يتفضل على من يشاء بالهداية ، ممن يعلم سبحانه انه يستحق الهدى ويتجه اليه ٠

« **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** » ان ما تنفقونه من خير فهو لأنفسكم ، ونفعه الدينى لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه عمن لا ينتفع به من حيث الدين كفقراء المشركين (٣) ٠ فالجملة تعليل لأمرهم بالنفقة على المحتاجين من المشركين ويلاحظ ما فى التعبير من تنكير « خير » ليشمل كل ما يتصدق به من جنس الخير وأن جزاءه ثابت لهم ٠ أيا كان المتصدق عليه مادام محتاجا مستحقا للصدقة ٠

« **وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله** » ٠ بيان لما يجب أن يكون عليه شأن المسلم فى انفاقه ، وأنه لا يبتغى به الا وجه الله تعالى ٠ فليس له أن ينظر فى صدقته الا الى هذا المعنى فقط ، ولا يمنع الصدقة عن محتاج لانه مخالف فى الدين ٠ فالجملة مقررة للمعنى السابق ٠ ويلاحظ ما فى التعبير من قصر يجعل ابتغاء وجه الله بالصدقة مقصورا عليه ، ومستثنى من أعم العلل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢٢ ٠

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٠٠ ٠

(٣) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٠٠ ٠

الداعية الى الانفاق · أى ليست نفقتكم لشيء من الأشـــياء ولا لسبب من الأسباب الا لابتغاء وجـــه الله · تأكيدا لضرورة الاخلاص ·

« **وما تنفقوا من خير يوف اليكم** » تأكيـد وبيـان لقـوله تعـالى : « **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** » للاهتمام بالمعنى وتثبيته فى النفـوس · والمعنى : أن أجر ما تنفقونه يوف اليكم كاملا ·

« **وأنتم لا تظلمون** » أى لا تنقصون شـــيئا مما وعـدتم من الثواب المضـــاعف والبركة فى الرزق · فلا تمتنعوا عن الانفـاق على محتـاجى المشركين · وقد نص الفقهاء على جواز صدقة التطوع لغير المسـلم · أما الصـدقة الواجبة فقد جوز أبو حنيفة صرف صـدقة الفطر الى أهل الذمة وأباه غيره (١) · وهكذا يؤكد القـرآن هـذا المعنى تأكيدا يهيىء النفوس للانقياد له والعمل بمقتضاه ويفى بحق البلاغة فى الدعوة ·

« **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فان الله به عليم** » ·

يوجه القرآن الكريم انتباه المسلمين الى صنف ممن يستحقون الانفاق وحاجتهم اليه قد تخفى على كثيرين ممن لم يؤتوا عمق النظرة ، وصـدق الفراسة ، انهم جماعة من المسلمين كرام النفوس وقفوا حياتهم على الجهاد فى سـبيل الدعوة ولم تتح لهم ظـــروفهم أن يسعوا فى طلب الـرزق فهم محتاجون فقـراء ، ولكنهم لعـزة نفوسهم يتعففون عن المسـألة ويسترون حاجتهم بالتجمل والصبر ويتكلفون ستر فقرهم عن الناس · ولكنهم مع ذلك يبدو عليهم ما يلمحه الذكى من دلائل الحاجة وشواهد الفقر · هؤلاء يوصى بهم القرآن ويحث على اعطائهم ولنتأمل التعبير الكريم ·

« **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض** » لقد أحاطت بهم واجباتهم فى خدمة الدعوة ، فلم تترك لهم سبيلا الى السعى انه تصـــوير للمعنى يبرزه ويجسمه ، ويجعـله أقوى دلالة على انشغالهم الكامل بأمور الدعوة والدفاع عنها · ثم ما فيه من ايجاز بحـذف متعـلق

---

(١) تفسير الكشاف · ج ١ ص ٣٩٨ ·

الجار والمجرور « للفقراء » والتقدير اجعلوا ما تنفقونه للفقراء لفهمه من المقام · وفى النص على أنهم فقراء ، وأن سبب فقرهم استغراقهم فى العمل فى سبيل الله ما يعطف القلوب عليهم ، ويدفعها الى البر بهم ·

وقيل انهم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحوا من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم فى التعلم والجهاد « **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا** » تصوير معجز لهذا النموذج البشرى الكريم الذى يوصى به القرآن الكريم . انهم فقراء أحاطت بهم ظروف قاهرة تمنعهم من الكسب ، ولكنهم يسترون حاجتهم وتمنعهم كرامتهم على أنفسهم أن يسألوا الناس ما يدفعون به فقرهم ، تعففا عن المسألة ، واذا سألوا فانهم لا يلحون فى السؤال ولكن سؤالهم على استحياء ، ولكن ذا الحس المرهف يدرك حالهم بما يبدو عليهم ـ على الرغم من تجملهم ـ من دلائل الحاجة ·

والنص وان كان واردا فى جماعة خاصة من المسلمين كما أشرنا ، الا أنه ينطبق على سواهم ممن يتحقق فيهم وصفهم ، وهم موجودون فى كل مجتمع وفى كل زمان · وواجب المسلم أن يؤثرهم بالفضل ، ويقدمهم فى العطاء والقرآن الكريم بهذا الدرس الرفيع يرتفع بالمسلم الى أعلى الآفاق ويذكى فيه أنبل المشاعر ·

وقديما عبر أحد هؤلاء عن احساسه العميق بالامتنان نحو صديق نبيل لماح قدم اليه ما يسد خلته على الرغم من مبالغته فى اخفائها ·

ذلك هو عمرو بن كميل يمدح عمرو بن زكوان ، وكان قد ذهب اليه لزيارته لما بينهما من صداقة ، ولبس جبة ضم ازارها على قميص ممزق حتى لا تبدو منه الحاجة ، ولكن ابن زكوان لمح ذلك فأسرع الى نجدة صديقه وكشف غمته · يقول عمرو بن كميل فى ذلك :

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى أيادى لم تمنن وان هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت
رأى خلتى (١) من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

---

(١) الخلة : بفتح الخاء : الحاجة ·

« **وما تنفقوا من خير فان الله به عليم** » هذا التعقيب على الدعوة الى ايثار هؤلاء بالتصدق يوحى بجانب ما فيه من ترغيب بأن الصدقة الى هؤلاء يجمل أن تكون سرا ، وذلك ما يوحى به اختيار صفة العلم هنا ، ايماء الى انه يستوى فى علمه السر والجهر بالصدقة ، فلتراع مشاعر هذا النوع من المستحقين وتقدم اليهم سرا · تجنبا لما يجرح كرامتهم ويؤذى حسهم · وهكذا تتجلى بلاغة القرآن ودقته فى اختيار اللفظ « **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ·

ويأتى هذا الختام ليؤكد المعانى السابقة وكأنه خلاصة الدرس كله مجملا فى كلمات ، فيبين أن الذين ينفقون أموالهم : اى كل أنواع المال ، فليست الصدقة مطلوبة فى بعض الأموال دون بعض · « **بالليل والنهار سرا وعلانية** » · فى أى وقت وبأية كيفية · « **فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ويلاحظ تقديم الليل على النهار والسر على العلانية ايماء الى مزية الاخفاء كما يلاحظ دخول الفاء فى « فلهم » لافادة سببية ما قبلها لما بعدها ·

وهكذا يدعو القرآن للانفاق فلا يفرضه فرضا ملزما رضيت به النفوس أو أبت بل يعمد كما رأينا الى النفوس يداوى أدواءها ويستجيش قواها ، ويزكى معانى الخير فيها ، وينفى عنها خبثها ، ويدلها على أقوم طريق وأهدى سبيل انه كلام الله رب الناس ·· عارضا كل ذلك فى أبهى حلل البلاغة ، وأسمى ألوان البيان ·

* * *

● أسلوب ذكر موجبات الساعة والترغيب فيها :

قال تعالى : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير · وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين · هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وان الله بكم لرؤوف رحيم · وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير · من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم · يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم · يوم يقول**

المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب · ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور · فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هى مولاكم ، وبئس المصير · ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون · اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون · ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم » (١) ·

هذه آيات من سورة الحديد وهى من السور المدنية تعالج الى جانب الدعوة العامة بعض الظواهر التى طرأت على المجتمع الاسلامى بعد الهجرة فقد كان السابقون الى الاسلام رضوان الله عليهم فى اقبالهم على الاسلام نموذجا للاخلاص للعقيدة التى آمنوا بها ، لم يدفعهم اليها رغبة فى مغنم ، ولا أجبرتهم عليها قوة مكرهة ، ولكنهم آمنوا يوم لم يكن هناك سوى التضحية والبذل ، وتحمل الأذى والمكاره فى سبيل الحق · ولكن الأمر بعد الهجرة وبعد أن ظهر الاسلام وقويت شوكته ، خاصة بعد الفتح جدت فيه عوامل جعلت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، ولم يعانوا التجربة التى عاناها السابقون فصقلت معدنهم وأعلت قدرهم ، ولذلك لم يصل بعض هؤلاء اللاحقين الى المستوى الايمانى الرفيع الذى يعيش به المؤمن وله ، ويترجمه فى حياته سلوكا فاضلا ينبىء عما فى نفسه من تجرد واخلاص· وهؤلاء هم الذين كان يصعب عليهم البذل فى سبيل الله ، والى جانب هؤلاء وجد المنافقون الذين اضطروا للتخفى تحت رداء الاسلام طمعا فى المغنم واتقاء للمخاطر · والآيات تواجه هذا الواقع فتدعو الى تزكية الايمان فى النفوس وتحقيق ما يقتضيه من بذل وانفاق ، كما تبين مصير المنافقين وتسوق اليهم القوارع علهم يثوبون الى رشدهم ويتداركون أنفسهم ·

« **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » دعوة الى الايمان بالله ورسوله والانفاق فى سبيله · والمدعوون الى الايمان مؤمنون ، وهذا ما يسميه العلماء أسلوب التهيج والالهاب ، والمراد بالأمر هنا الثبات على الايمان والزيادة منه بتحقيق ما يقتضيه من طاعة لله واستجابة لأوامره، فالايمان يزيد وينقص ، وهو بضع وسبعون شعبة كلما حقق الانسان شعبة

---

(١) الحديد : ٧ ـ ١٨ ·

من شعبه نما ايمانه وزكا يقينه · وهذا الأسلوب أبلغ من الأمر بالثبات على الايمان وزيادته لأنه يفيد مع هذا اثارة الوجدان وتهيئة النفس لتكون أحسن تلقيا ، وأكثر تمسكا بما لديها (١) ·

وذكر رسول الله ﷺ فى حيز الأمر بالايمان ، للاشارة الى أن الايمان به عليه السلام جزء من الايمان ، لا يتحقق الا به ، وللاهتمام أيضا لان الايمان به عليه السلام يقتضى الايمان بما نزل عليه وهو جامع لكل أركان الاسلام وما به يتحقق ويزكو ·

« **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » المعنى : أنفقوا من مال الله الذى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، أو من المال الذى جعلكم خلفاء فيه ممن قبلكم بتوريثه اياكم · وعلى أى المعنيين حملناه ، فان هذا التعقيب على الدعوة الى الانفاق فوق انه بيان لحقيقة الأمر ، فيه ترغيب فى الانفاق وحمل عليه ، فان من علم انه ليس مالكا لما فى يديه من الأموال وانه بمنزلة الوكيل استشعر دائما انه ملزم بالتصرف فيه وفق ما عينه الموكل من مصارف ، وان مخالفته لأوامره خروج على حدود مهمته وتعد منه · وكذلك الأمر على المعنى الثانى ، لان من يتذكر انه قد آل اليه المال ممن سبقه وعلم انه سينتقل منه الى من بعده ، كان فى ذلك عبرة له تدفعه الى البذل منه رجاء الخير لنفسه قبل أن ينتقل الى غيره ·

« **فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير** » لمسة أخرى لوجدانهم ترغبهم فيما دعوا اليه باخبارهم بما أعد لهم من الأجر · ويلاحظ ما فى الجملة من تأكيدات ، مبالغة فى تحقيق الوعد وبعثا للثقة فيه لتتحقق استجابتهم لما يدعون اليه ، وذلك حيث جعل الجملة اسمية ، وأعاد ذكر الايمان والانفاق صلة للوصول لتأكيد أن الأجر مترتب على تحقيق الصلة · وتفخيم الأجر بالتنكير ، ووصفه بالكبير · وذلك ما يقتضيه مقام الترغيب والحث ·

« **ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين · هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وان الله بكم لرؤوف رحيم** » المعنى : أى عذر لكم فى عدم الايمان ، وكل دواعيه متوفرة لكم وموجباته متحققة لديكم ؟ ، فالرسول عليه السلام بينكم يدعوكم اليه ، والله تعالى قد أخذ عليكم الميثاق

---

(١) انظر فى مثل هذا المعنى : كتاب من أسرار التعبير القرآنى ص ٨ · د · محمد أبو موسى ·

بما أقامه سبحانه من أدلة قاطعة وبتمكينكم من النظر والاستدلال بها · وفوق هذا وذاك فان الآيات البينات تتنزل على رسول الله ﷺ تهديكم الى الحق ، وتخرجكم من ظلمات الحيرة الى نور الهدى رحمة بكم ورأفة · فلو كنتم مستجيبين حقا لموجبات الايمان فان لديكم منها مالا موجب وراءه · ولنتأمل النظم الكريم ·

« **ومالكم لا تؤمنون بالله** » استفهام عن سبب امتناعهم عن الايمان والمراد به انكار أن يكون لهم عذر فى ذلك ، وتوبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه والتعجب من حالهم · وهو أسلوب له وقعه فى النفوس بما يتضمنه من تنبيه الى أن ما هم عليه بعيد عما تقتضيه دواعى الايمان ، وانه لا مبرر لهم فى امتناعهم عنه ·

« **والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** » · هذا من أكبر موجبات الايمان فوجود الرسول بينهم ، ودعوته اياهم ، ومشاهدتهم لأحواله عليه السلام كل ذلك يعين على الاستجابة ويحمل على الايمان ·

ولقد صور الرسول ﷺ هذه الحقيقة ، فيما روى عنه عليه السلام · انه قال لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب اليكم ايمانا ؟ قالوا الملائكة · قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا : فالأنبياء · قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم · قالوا : فنحن · قال : ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم · ولكن أعجب المؤمنين ايمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » (١) ·

والقرآن الكريم حين يذكر لهم ذلك فالمراد توبيخهم على عدم تحقيق الايمان فى نفوسهم مع وجود ما يوجبه ويدعو للتسابق اليه · بعد أن وبخهم على عدم الايمان مع انقطاع أى عذر لهم فيه · كما نلاحظ ما فى التعبير بلفظ « الرب » واضافته الى ضميرهم حثا لهم على الاستجابة وتذكيرا بفضله عليهم ورعايته لهم ·

« **وقد أخذ ميثاقكم** » سبب آخر يدعو للايمان ويوجبه · وأخذ الميثاق اما أن يحمل على الحقيقة ويفسر بما جاء فى قوله تعالى « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا** » (٢) · وعلى هذا يكون الايمان مركوزا فى فطرة الانسان وجزءا من

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٠٥ · (٢) الأعراف : ١٧٢ ·

طبيعته ، فحين يؤمن فهو يستجيب لما فى فطرته من دوافع للايمان وحين يكفر يكون معاندا لما فى فطرته مقاوما لها · واما أن يحمل على المجاز من باب التمثيل · فقد شبه نصب الأدلة وتمكين العقول من الاستدلال بها على الله بأخذ الميثاق عليه أن يؤمن ، بجامع تحقق الالزام فى كل · وتكون بلاغة التمثيل فى الآية الكريمة مستمدة من تصويره للمعنى فى صورة أكد فى الالزام · فان من يعطى من نفسه العهد والميثاق اكثر التزاما بما عاهد عليه ممن سبق اليه الدليل فلم يعمل بمقتضاه · وأيا كان المحمل فهو من داوعى الايمان القوية التى لا يصح تجاهلها ·

« **ان كنتم مؤمنين** » اى ان كنتم مستجيبين لدواعى الايمان فليس هناك ما هو اقوى من هذه الدواعى ·

« **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور** » ترغيب ايضا فى الايمان بذكر ما يوجبه ، من الآيات والدلائل الواضحة التى ينزلها الله على رسوله ليخرجهم بها من ظلمات الكفر الى نور الايمان · ويلاحظ فى الاسلوب من جمع الآيات ، اشارة الى تعددها وكثرتها قطعا لكل حجة ووصفها بأنها « بينات » لا يخفى الاستدلال بها على أحد ، ولا عذر لمن ينتفع بها · كما يلاحظ ما فى التعبير بـ « يخرجكم » من تصوير للمعنى ، كأنه ينتقل بهم من مكان الى مكان · واستعارة الظلمات للكفر ، وما تؤديه الاستعارة من تنفير منه بتصوير الكفر بصورة الظلام الذى يحيط بالكافر فيتركه ضالا متخبطا قلق النفس ، بالاضافة الى ما يلقيه لفظ « الظلمات » فى النفس من ايحاء بالانقباض والرهبة ، ثم جمع الظلمات مبالغة فى التنفير ، وكذلك استعارة النور للايمان وما تؤديه الاستعارة من ترغيب فيه بتصوير الايمان بالنور الذى يوحى بشعور بالبهجة والاطمئنان ويحمى من رزقه من مزالق الطريق ويقوده الى الصراط المستقيم · ثم ما فى المطابقة بين « الظلمات » و « النور » من ابراز للبون الشاسع بين الايمان والكفر زيادة فى الترغيب فى الأول والتنفير من الثانى ·

« **وان الله بكم لرؤوف رحيم** » فاصلة يستدعيها المعنى فالله تعالى حين ارسل اليهم الرسول وانزل عليه الآيات البينات ، ونصب لهم الادلة ومكنهم من الاستدلال بالعقول انما كان ذلك رافة بهم ورحمة منه · ويلاحظ ما فى الجملة من تأكيد بان واللام واسمية الجملة وذلك يقتضيه مقام الترغيب وتقديم الظرف « بكم » للاهتمام والتشويق الى ما بعده ·

« **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض** » ··

انكار لامتناعهم عن الانفاق فى سبيل الله دون سبب يدعوهم الى ذلك ، والمراد توبيخهم كما سبق فى توبيخهم على ترك الايمان · ثم بيان لوجب الانفاق بعد بيان موجبات الايمان · فهو يتساءل منكرا اى عذر لكم فى ترك الانفاق فى سبيل الله ؟ · ويلاحظ ما فى التعبير من تعيين جهة الانفاق بأنها سبيل الله ، زيادة فى التوبيخ اذ كيف يمتنعون عن الانفاق فى سبيل المالك الحقيقى للمال ، وهم وكلاؤه فى التصرف فيه ملزمون بالتقيد بما يعينه لهم من جهات الانفاق ؟

« **ولله ميراث السموات والأرض** » بيان لداع جديد من دواعى الانفاق · وهو ان كل ما فى السموات والأرض باق لله تعالى فى نهاية الأمر ، دون ان يبقى منهم احد · فكيف لا ينفقون فى سبيله ما هو باق له ؟ وهذا اقوى فى ايجاب الانفاق مما سبق فى قوله تعالى « **مما جعلكم مستخلفين فيه** » كما هو ظاهر · والغرض من ذكر هذا الموجب للانفاق زيادة توبيخهم ، فان الامتناع عن الانفاق مع عدم وجود داع للامتناع قبيح منكر ، والامتناع مع وجود الداعى للانفاق اشد قبحا وادخل فى الانكار (١) · وواضح ان فى التعبير بـ « ميراث » استعارة لبقاء ما فى ايديهم بعد موتهم ، لله تعالى والاستعارة ابلغ لتصويرها المعنى وتذكيرهم بالموت وما يعقبه مما يحمل على الاستجابة وتقديم « لله » لافادة القصر تأكيدا للمعنى ·

« **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** » ·

بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت الظروف المحيطة بالانفاق · فهؤلاء الذين انفقوا قبل الفتح وقاتلوا فعلوا ذلك والعقيدة مطاردة ، والأنصار قليلون ، وليس فى الافق بارقة أمل فى مغنم قريب او سلطان منتظر فكان الدافع لهم هو الاخلاص الذى لا يشوبه شائبة ، اما الآخرون فانهم انفقوا وقاتلوا بعد ان قويت شوكة الدعوة وكثر أنصارها ، وبدت بوادر النصر والغلبة وهذا يجعل الانفاق أيسر على النفس نظرا للظروف المعينة عليه · فلا يستقيم فى منطق العدل ان يتساوى الطرفان فى اجر الانفاق مع

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٣٧ ·

تفاوت احوالهم فيه · ويلاحظ ما فى التعبير من ايجـاز بحذف قسيم « مـن انفق » لدلالة ما بعـده عليه ، وكذلك عطف القتـال على الانفاق للاشارة الى انه من اهم ابواب الانفاق ·

« **وكلا وعد الله الحسنى ، والله بمـا تعمـلون خبير** » هؤلاء واولئـك وعدهم الله المثوبة الحسنى ، فكلهم محسن ، ولكن التفاوت بينهم فى الجزاء مرده الى علم الله تعالى واطلاعه على احوالهم وخبرته ببواطنهم ، فيجازى كلا بما يعلمه عنه · وهكذا تلتئم الفاصلة بالمعنى وتكمله · ويلاحظ ما فيها ايضا من حث على الاخلاص وتزكية البواطن التى عليها مدار الجزاء ·

« **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كـريم** » انتقال الى الترغيب فى الانفاق بعد الأمـر به والتوبيخ على تركه وبيـان دواعيـه ·

وابتدأت الآيات ذلك بهذا النـدب البليغ من الله تعـالى « **مـن ذا الذى يقرض الله** » انها دعوة مؤثرة بتصوير المنفق فى سبيل الله بصورة المقرض له مع أن المنفق وما ينفقه ملك لله تعالى ، وأى أسلوب أبلغ فى استمالة القلوب من ان يقول صاحب المال لخليفته فيه : اقرضنى · ثم يعده على هذا القرض الحسن الخالص له بأن يضاعفه له أضعافا مضاعفة ، وله فوق ذلك أجـر كريم فى الآخرة · ومن الواضح أن استعارة الاقراض للانفاق أبلغ فى تأدية المعنى واقوى فى الحث عـلى الانفـاق حيث تؤكد ان جزاء الانفاق واقـع لا محالة شأن المقترض يرد القرض الى صاحبه ·

ويلاحظ ما فى وصف القرض بأنه « حسن » من تأكيد لمعنى الاخـلاص فيه وملاحظة آداب الانفاق التى سبق ان بينتها الآيات السابقة مـن تحـرى الطيب وأفضل الجهات لتوجيهه اليها ، ثم ما فى وصف الأجر بأنه « كريم » حيث وصفه بصفة صاحبه والمتفضـل به ، مبالغـة فى تعظيمه زيـادة فى الترغيب كأنه قيـل : ان هذا الأجر كريم فى نفسه من غير أن يضـاف اليه الاضعاف فكيف اذا اضيفت اليه ·

« **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانكم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم** » ·

والآيات هنا تعرض مشهدا من مشاهد هذا اليوم الذى يكون فيه الاجر الكريم . انه مشهد حى ، ابطاله المؤمنون والمؤمنات والمنافقون والمنافقات والملائكة الكرام · وزمانه يوم الفصل حيث يواجه كل انسان ما قدمت يداه ومكانه موقف الحساب ممتدا الى حيث يحل المؤمنون والمؤمنات دار المقامة تحفهم الأنوار وتتلقاهم الملائكة . مخلفين وراءهم المنافقين يتخبطون فى ظلمات اعمالهم حتى ينتهوا الى مستقرهم فى النار · ويأتى الحوار بين هؤلاء وأولئك ليبرز المشهد حيا متحركا كاننا نرى الصورة ونسمع الحوار ·

« **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم** » ها هو ذا الموكب المهيب الجليل ، موكب المؤمنين والمؤمنات يمضى الى دار الكرامة نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم · والنور الذى يؤتاه المؤمنون هو امتداد لما أثروه فى الدنيا من الايمان والهدى الذى ينير القلوب ويهدى البصائر ، يدركهم هناك يسعى بين ايديهم ، وهو أيضا صحفهم الوضيئة يتلقونها بأيمانهم فتشع نورا وضياء ، ويلاحظ ما فى قوله تعالى « ترى » من ايثار صيغة المضارع لابراز المشهد كانه ماثل أمام العين تقوية لأثره فى النفس ثم ذكر « المؤمنات » عقب المؤمنين اشارة الى تساويهما فى التكليف والجزاء وهى لمسة قصد بها تكريم المرأة والمبالغة فى حثها · ثم قوله « يسعى » وما يضيفه الى المشهد من الحركة والحياة بما فيه من تصوير يشخص المعانى وكذلك ما فى قوله تعالى « **بين أيديهم وبأيمانهم** » من كناية عن كثرته وكونه لارشادهم فى مسيرتهم المباركة ووقايتهم من مزالق الطريق وعقباته · زيادة فى الترغيب الذى يقتضيه المقام·

« **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** » لمسة جديدة تضيف الى المشهد جلالا فوق جلاله ، انهم الملائكة يكرمون الموكب الكريم ويبشرون أصحابه ، يقولون : بشراكم التى نسوقها اليكم اليوم دخول جنات تجرى من تحتها الأنهار · لتمتلىء قلوبهم غبطة ورضا · ويلاحظ ما فى التعبير بـ « جنات » بالجمع وما يوحى به من واسع الجزاء ووافر النعم ، ثم وصف الجنات أيضا بانها « **تجرى من تحتها الأنهار** » ايماء الى تناهيها فى الحسن والجمال ثم اضافة انهم خالدون فيها ولن يتحولوا عنها ، فليست كمتع الدنيا الزائلة ، التى تعقب الحسرة والألم · بل هى النعيم الدائم والأمن الدائم · وتلك لمسات يقتضيها مقام الترغيب ·

« **ذلك هو الفوز العظيم** » حقا انه الفوز العظيم ، الذى لا غاية وراءه كما يدل على ذلك تعريف المسند اليه بلام الجنس ، ووصفه بالعظيم · ويمضى الموكب الكريم الى غايته على هدى الأنوار مكرما عزيزا ··

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » ٠

انه الجانب الآخر من المشهد يكمله ويضيف اليه ايحاءات جديدة ولمسات جديدة ، تدعم تأثيره فى القلوب ، ونهنهته للوجدان ٠٠

ان هناك أيضا المنافقين والمنافقات ٠ يتخبطون فى الظلمات وتلفهم حجبه الكثيفة ٠ يتطلعون الى بصيص من نور أو بارقة من ضياء ، يتبينون بها معالم الطريق ويسكنون بها بعض ما فى نفوسهم من هلع ٠ انهم يتعلقون بأذيال المؤمنين ضارعين « **انظرونا نقتبس من نوركم** » انهم يضرعون اليهم أن ينتظروهم ويتملهوا فى اسراعهم الى الجنة ، ليهتدوا بنورهم ٠ أو يطلبون منهم أن ينظروا اليهم فانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين أيديهم ٠ يا له من تصوير ٠٠ **ولنتأمل** قوله تعالى : « **نقتبس** » فان أصله اتخاذ القبس ـ والمراد به هنا ـ نستضىء ٠ واستعماله بهذا المعنى فيه هو تصوير يخيل حركة اتخاذ القبس ، تقوية له وتثبيتا فى النفس ٠

« **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا** » رد عليهم بما يستحقون من تهكم وتوبيخ وتيئيس ٠ « **ارجعوا وراءكم** » عودوا الى الموقف فالتمسوا هناك ما تريدون من نور ٠ أو عودوا الى الدنيا فاعملوا ما يمنحكم النور ٠ وقد علموا أنه لا نور فى الموقف ولا رجعة الى الدنيا ٠ وانما قالوه تهكما وتيئيسا ٠ او ارادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة على سبيل الاستعارة التهكمية ٠ التى تملأ قلوب المنافقين حسرة ، وتزيد المؤمنين غبطة وفرحا ٠

« فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » ٠

وعندما يصل الموكب المبارك الى مستقره فى الجنة يحال بين الفريقين ويفصل بسور له باب ، فى جانبه الذى يلى الجنة الرحمة ، وفى جانبه الآخر الذى يلى النار من جهته العذاب ٠ ويلاحظ ما فى التعبير بالفاء فى «فضرب» التى تدل على سرعة وصول الركب المبارك الى الجنة واقامة السور بين الفريقين ٠ وكذلك اطلاق الرحمة على الجنة ، والعذاب على النار ٠ للتلازم بين كل منهما وما اطلق عليه والمجاز هنا ابلغ حيث اطلق الرحمة على الجنة والعذاب على النار تأكيدا لتحقق كليهما ٠ وأخيرا تبهرنا تلك المقابلة الرائعة فى قوله تعالى « **باطنه فيه الرحمة** » وقوله « **وظاهره من قبله**

العذاب » وهى مقابلة تبرز البون الشاسع بين حال الفريقين ، استثارة لدوافع الخير . وكبحا لنوازع الحرص والشح ·

« **ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور** » ·

فى غمرة اليأس وهول الموقف ينسى المنافقون أو يتجاهلون الحقائق فهاهم يسألون المؤمنين : « **ألم نكن معكم** » ؟ يريدون موافقتهم للمؤمنين فى الظاهر حيث أعلنوا أنهم مسلمون · فيرد عليهم المؤمنون : بلى · الأمر كذلك · ولكنكم « **فتنتم أنفسكم** » أى اهلكتموها بتعريضها لهذه المحنة بنفاقكم ، وتربصتم بنا الدوائر « **وارتبتم** » فى الدين فلم يكن اسلامكم عن ايمان ويقين بل تقية وخداعا « **وغرتكم الأمانى** » أى غركم أملكم فى انتكاس أمر الاسلام وهزيمة اصحابه « **حتى جاء أمر الله** » وانتهى الأمر « **وغركم بالله الغرور** » وخدعكم الشيطان الذى كان يعدكم ويمنيكم ، وانه لرد مفحم يسوق اليهم حيثيات الحكم عليهم بما هم فيه من سوء ، تيئيسا لهم . وقطعا لكل أمل لديهم ·

« **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار . هى مولاكم . وبئس المصير** » ·

تقرير حاسم ، يقطع كل أمل وينهى كل حوار ، اليوم لا يغنى عنكم من الله شىء فلا سبيل الى التخلص من العذاب ، فلا تؤخذ منكم فدية تقدمونها بل النار هى مقركم وهى أولى بكم وبئس المصير ما أنتم فيه ·

ويلاحظ ما فى التعبير الكريم « **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية** » من تهكم بهم انهم لا يملكون ما يفتدون به انفسهم ولكنه التهكم والتذكير بأساليبهم فى الدنيا التى لا تغنى هناك شيئا ، ثم ان مساواتهم فى الحكم بالذين كفروا انذار للمنافقين أن نفاقهم وتظاهرهم بالاسلام ـ وان تستروا خلفه فى الدنيا طمعا فى المغانم واتقاء للأخطار ـ فانه فى الآخرة لن يغنى عنهم شيئا ، فهم والكافرون سواء فى سوء المصير ·

ثم ان التعبير بقوله « **هى مولاكم** » أى ناصركم على سبيل التهكم فان المقصود هو نفى النصير جملة ·

وينتهى المشهد المهيب الذى يجعل أقسى القلوب تسرع الى البذل وتتسابق فى العطاء · فأى قلب لا يهفو الى ذلك النور ، ولا يستجيب لهتاف الانفاق والبذل تحت ايقاع تلك الموجبات العميقة التأثير ؟

« **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون** » ·

المعنى : ألم يأت الوقت لأن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ٠ والتعبير بما تضمنه من تساؤل يحمل معنى استبطاء استجابتهم لما ندبوا اليه من تحقيق الايمان فى قلوبهم وبذل الأموال فى سبيل الله ، فقد بدأ بهذا التساؤل الذى يحمل رنة العتاب ونغمة الاستبطاء ثم عبر بالموصول ليخص فى صلته على الايمان الذى يستوجب المسارعة الى الطاعة ، ثم بين ما أصابهم من فتور حرارة الايمانُ فى قلوبهم ، وهو بكل هذه اللمسات التى يقتضيها المقام يستجيش نفوسهم الى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره ، ولما نزل من الحق ٠

ثم يذكرهم بما أصاب أهل الكتاب من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال حين طال عليهم الأمد دون أن يزكوا فى قلوبهم معانى الخير ، ويزيلوا ماغشيها من صدأ ، ويحذرهم أن ينتهى الحال بهم الى ان يكونوا مثلهم ٠

روى أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة وفتروا عما كانوا عليه فنزلت ٠ وعن ابن مسعود رضى الله عنه « ما كان بين اسلامنا وبين ان عوتبنا بهذه الآية الا اربع سنين » (١) ٠

والآية الكريمة بيان لطبيعة النفس وحاجتها الدائمة الى المجاهدة والتذكير فالذكرى تنفع المؤمنين ، وهذا درس للداعية ، واعلاء لرسالته السامية فى ايقاظ المشاعر وتعهد القلوب بالموعظة التى تنفى خبثها وتمدها بالزاد الروحى الذى يعينها على الطاعة ويدعم فيها مقاومتها لاغراء الشهوات ووسوسة الشيطان ٠

« **اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها** » لمسة جديدة من لمسات القرآن الموحية ، ان الآية الكريمة تطمع المخاطبين فى عون الله لهم اذا اتجهوا الى احياء قلوبهم وتزكية الايمان فيها ترغيبا لهم فى ذلك ٠ فان الذى يحيى الأرض بعد موتها ، بما ينزله عليها من غيث ، يحيى القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن والعمل به ٠

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤ ٠

ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من اطلاق ـ الحياة ـ على تزيين الأرض بالنبات واخراجه منها و ـ الموت ـ على خلوها منه ويبسها ، والاستعارة ابلغ من الحقيقة لما فيها من تقوية للمعنى وتصويره بالاضافة الى ما بها من طباق يبرز عظم قدرة الله تعالى واتساع مداها ·

« **قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** » تعقيب على تمثيل القلوب فى احيائها بالذكر والقرآن بالأرض فى احيائها بالغيث بعد موتها ، للاشارة الى أن فيما ذكر آية دالة على الهدى لمن أراده ، قد سقناها لكم لعلكم تعقلون مغزاها وتنتفعون بها ·

« **ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم اجر كريم** » تأكيد للمعنى بتكريره ، والتكرير كما سبق من أقوى عوامل تثبيت المعانى فى النفوس وحملها على الاستجابة لها والعمل بمقتضاها ·

ويلاحظ ما فى التعبير من التأكيد ـ بأن ـ وذكر ـ المصدقات ـ مع امكان دخولهم فى المصدقين تغليبا ، وتنبيها على شدة حاجة المصدقات خاصة الى الصدقة كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « يا معشر النساء تصدقن فانى رأيتكن أكثر أهل النار » ، ثم النص على أن تكون الصدقة خالصة لله ، وقرضا له ، لا ينظر فيها المصدق الى أخذها ، ثم ما فى تصويرها بالقرض من تأكيد لتحقيق الأجر المترتب عليها ، والنص على مضاعفتها ، وضم الأجر الكريم الى المضاعفة كل ذلك استمالة للقلوب وترغيب فى الطاعة ·

وبعد : ففى لغة القوانين وأسلوب الأمر والنهى كان يكفى أن يقال : آمنوا ، وأنفقوا · ولكن القرآن الكريم فى دعوته حريص على أن يهيىء لأوامره قلوبا منقادة الى الطاعة ، ونفوسا مملوءة بفيض من الدوافع والمشاعر والأشواق ، تجعلها تتقبل ما يلقى اليها هاشة له مطمئنة اليه ، مسرعة الى امتثاله ، يملؤها الرضا وتغمرها النشوة بالتوفيق الى طاعة ربها وقربها من حماه ·

وهذه هى ضمانة النجاح فى التطبيق ، وتلك مهمة الدعاة ومعترك الدعوة ، والبلاغة هى السلاح الذى لا يفل لمواجهة كل ذلك كما رأينا ·

★ ★ ★

● أسلوب التحذير من الامتناع عن الانفاق :

أولا ـ الترهيب بالعقوبة فى الدنيا :

قال تعالى : « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين • وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين • قال انما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون • فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم • وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون • فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين • وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون • تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين • من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون (١) •

تحكى الآيات الكريمة قصة أحد المفسدين فى الأرض ، الذين غفلوا عن حكمة الله فى بسط الرزق لمن يشاء وقبضه عمن يشاء ، ذلك هو قارون الذى كان من قوم موسى عليه السلام ، فقد آتاه الله مالا كثيرا ، وبدلا من أن يقوم بحق الله فيه تطاول به وبغى على الناس وصم أذنيه عن كل صوت يحاول أن يرده عن فساده ويلزمه الصراط السوى • فكانت عاقبته فى الدنيا أن خسف الله به وبداره الأرض ، ولم يجد من ينصره ويدفع عنه • وفى ثنايا سرد الأحداث تسوق الآيات الكريمة لمحات تهدى الى منهج الاسلام وسياسته فى الأموال ، كما تكشف عن الطبيعة البشرية فى افتتانها بالمال افتتانا ينسيها حكمة الله فى العطاء ولا يسلم من هذا سوى من كان صوت الايمان فى قلوبهم أقوى من كل اغراء ثم تختتم الآيات بتقرير ما سيقت القصة من أجله وتلخيص الدرس المستفاد منها بأن الآخرة أعدها الله للذين

---

(١) القصص : ٧٦ ـ ٨٤ •

لا يريدون فى الأرض علوا ولا فسادا وأن العاقبة للمتقين الملتزمين بحدوده الشاكرين لأنعمه ٠

« **ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم** » تكتفى الآيات فى التعريف ببطل القصة بأن اسمه قارون وانه كان من قوم موسى فبغى عليهم ، ولا تتعرض لذكر مكان القصة أو زمانها ، وذلك لأن الكتاب الكريم يسوق القصة لهدف محدد فلا يذكر الا ما يتعلق بهذا الهدف ويقتصر على ما يحقق الغرض من القصة ٠ والبغى هو الظلم ٠ والآيات تشير الى سبب البغى وهو ما كان يتمتع به من ثراء ، ولكنها لا تذكر فيم كان البغى ، ليشمل كل ما يمكن أن يرتكبه من مظالم مستعينا بثرائه وامواله ، او بعدم ادائه حقوق المال للمحتاجين ٠ وليذهب الخيال فى ذلك كل مذهب ٠

« **وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة** » لقد آتاه الله كنوزا طائلة صور القرآن الكريم كثرتها بأن مفاتح خزائنها يثقل حملها الجماعة كثيرة العدد البالغة القوة ٠

ويلاحظ ما فى التعبير ـ بالكنوز ـ ليفيد ان هذه الأموال كانت مدخرة فائضه عن حاجته فلا عذر له فى البخل بها ، وذلك اشارة الى ان بخله صادر عن مرض فى نفسه لا عن حاجة الى المال تعظيما لجريمته ٠ كما يلاحظ المبالغة فى التعبير عن كثرة هذه الأموال بذكر الكنوز بصيغة الجمع ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة (١) ٠

وكذلك التأكيد بأن واللام ٠ وذلك قطعا لكل عذر فى البخل وتعظيما للجريمة ٠

« **اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين ٠ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين** » ٠

لقد وجد من قومه ـ على الرغم من بغيه ـ من يقدم له النصيحة ويحاول ان يرده عن بغيه ٠ وهذه النصيحة التى يحكيها القرآن الكريم على لسان ناصحيه تتضمن منهج القرآن السوى الذى يجب ان يلتزم به ذوو اليسار من المؤمنين ٠

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٠ ج ٣ ص ١٩٠ ٠

« **لا تفرح** » فالفرح بالمال اذا استولى على القلب أنساه شكر المنعم به وملأه تعلقا بالكنوز واحتفاء بها ، ودفعه الى البغى على الناس ، والتطاول عليهم ، ثم ان الفرح بالمال هو نتيجة حبه ، والغفلة عن ذهابه وعن انه عارية مستردة ، لا يبقى منها الا ما ادخر للآخرة ، ولو تذكر الغنى ذلك لشعر بتبعة النعمة ، وانها فتنة له ، وعمل على أداء حقها لينجو من تبعاتها وهذا الشعور يحول بين قلب المؤمن والاستسلام للفرح المبطر بالمال ·

« **ان الله لا يحب الفرحين** » بيان لعلة نهيه عن الفرح لأنه يحول بينه وبين محبة الله له · لما يترتب عليه من المعانى التى اشرنا اليها ، ويلاحظ ما فى التعبير من تأكيد اقتضاه حرص الناصحين له على هدايته · « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا** » وهذه النصيحة هى جماع المنهج الاسلامى فى الصرف فى المال ، بأن يكون رائده فى تصرفه محققا لمصالحه الآجلة والعاجلة ، فلا تطغى واحدة على الأخرى ، واذا كانت الدار الآخرة هى الحيوان ، فما أحراها بأن تستأثر بالأولوية والعمل على ما يرجى به الخير فيها ، ولهذا عبر فى جانبها بقوله «**وابتغ**» أى ليكن هدفك وبغيتك ، وعبر فى جانب الدنيا بقوله « **ولا تنس** » أى لا تترك ترك المنسى · فمن حقك أن تستمتع بما فيها ، فالدين لا يمنعه من أن يستمتع بطيبات الرزق فى الدنيا فيأخذ منها بنصيب ، وهكذا يتحقق للانسان التعادل الذى يمكنه من الارتقاء الروحى دون اهدار لمطالب الحياة الفطرية ، أو حرمان لا تستقيم به الحياة · وواضح ما تضيفه المقابلة بين الآخرة والدنيا من ابراز لهذه المعانى المتقابلة تمكينا لها فى النفس ·

« **وأحسن كما أحسن الله اليك** » تذكير لقارون بأن ما بين يديه من أموال نعمة من الله أحسن بها اليك · فعليك أن تقابل الاحسان بمثله بأن تؤدى شكر النعمة بانفاقه فيما يرضى الله تعالى الذى أحسن به اليك ويلاحظ ما فيه من ايجاز يجعله من جوامع الكلم ·

« **ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين** » نهى له عن الافساد بالمال بانفاقه فى غير وجهه ، أو التطاول به على الناس ، أو امساكه والشح به عن المحتاجين · فكل ذلك وغيره فساد بالمال ، والله لا يحب المفسدين · فهل استجاب للنصيحة المخلصة ؟ « **قال انما أوتيته على علم عندى** » انها اجابة تنم عن الطغيان والغرور الذى ينسى صاحبه كل شىء سوى ذاته ، ويعميه عن مصدر نعمته ، انما أوتيته وحصلت عليه بكفايتى وعلمى

وخبرتى · وهو يعبر عن ذلك بأسلوب الواثق المتغطرس فيستعمل أسلوب القصر الذى يصور ما فى بصيرته من عمى يحجب عنه رؤية الحقيقة التى ساقها اليه ناصحوه ، وهو أن ما يملكه من أموال رزق من الله ساقه اليه دون أن يكون له فضل فيه · ومن هنا عاجله القرآن بالرد وساق اليه التهديد ، قبل أن يستكمل سرد أحداث القصة ·

« أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعا ، ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون » ·

انه يدعى العلم ويعتز به ، ويزعم أنه قد جمع ما جمع بفضل هذا العلم · أو ليس فيما علمه أن الله قد أهلك أمما قبله لاغترارهم بالمال وبغيهم ؟

فلماذا لم يستفد بهذا ويجنب نفسه مصيرهم ؟ وهو استفهام يوحى بالتهكم منه والتوبيخ له ، وتهديده بما سيناله من هلاك اذا لم يكف عن بغيه وافساده ثم يؤكد القرآن تهديده ببيان أن عقاب الله للمجرمين سنة ماضية ليست مقصورة على من مضى من القرون بل انه تعالى مطلع على جرائمهم يعاقبهم عليها حتما ، وهم أهون عليه من أن يسألهم عنها بل يباغتهم بالعقوبة·

وفى التعبير بـ « **من القرون** » ووصفها بانها « **اشد منه قوة واكثر جمعا** » قطع لأى أمل له فى الافلات من العقاب · فهى سنة الله الماضية فى كل من حاد عن طريقه ، ولا تغنى قوة أو مال فى أن تجنب هؤلاء المجرمين ما يريده الله بهم من اهلاك ·

وهكذا أصر قارون على بغيه واستخف بالنصيحة ، ومضى يفتن فى مظاهر التطاول والبغى · ويكون هذا المشهد الذى يصور موقف النفس البشرية أمام المال واغرائه ·

« فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم · وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون » ·

ها هو ذا قارون يخرج على قومه فى مظاهرة لاستعراض القوة والتباهى بالغنى ، جمع لها كل ما يبهر ويروع ، قيل « خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه أربعة آلاف على زيه ، وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلاثمائة غلام ، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض

عليهم الحلى والديباج (١) والقرآن يعبر عن ذلك بكلمة واحدة « زينته » وهى كلمة توحى بالزوال والانقضاء ، شأن الزينة فهى أمر عارض لا يدوم · وهذه لمحة عميقة الايحاء بالاستهانة بما أبداه من مظاهر القوة تبجحا وتطاولا ، فهى زينة وعرض زائل عند من يستطيعون النفاذ ببصيرتهم الى جوهر الأشياء وحقيقتها · فلا تبهرهم المظاهر الخادعة ·

فماذا كان موقف القوم وقد شاهدوا تلك المظاهرة ؟ « **قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم** » · هذا موقف فريق من القوم ، للدنيا فى نفوسهم المرتبة الأولى ، هذه هى علتهم التى جعلتهم يفقدون توازنهم أمام بريق الزينة فيبهرون بها ويتمنون الحصول عليها · وذلك هو السلوك الطبعى لمن خبث فى قلبه جذوة الايمان ، وضمرت القيم التى يغرسها فى النفوس ، فتحمل صاحبها الى التطلع نحو آفاق أسمى من الدنيا ومتاعها ، والاستعلاء على كل اغراء ، والصبر على كل مكروه ·

والتعبير باسم الموصول للتنبيه على أن مسلكهم نتيجة لما تضمنته الصلة من وصفهم بأنهم « **يريدون الحياة الدنيا** » وارشادا لما يجب أن يحتاط منه المؤمن ، فلا يجعل الدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه · والتعبير بـ « ليت » يصور استعظامهم لما أوتيه قارون كأن الحصول على مثله مستحيل أو متعذر الوقوع ·

وقوله تعالى حكاية لقولهم « **انه لذو حظ عظيم** » تأكيد لاحساسهم هذا وتعليل لتمنيه · ويلاحظ ما فيه من تأكيد بأن واللام واسمية الجملة والوصف بأنه عظيم وذلك تعبير عن امتلاء قلوبهم بحب المال وانبهارهم به ·

« **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون** » ·

وهذا موقف الفريق الآخر ، الذين أوتوا العلم الصحيح الذى يقوم الأشياء تقويما حقيقيا ، فيضع كل شىء موضعه · ان نفوس هؤلاء العلماء أعلى قدرا من أن تتهاوى أمام زينة الدنيا ، انها هناك تتطلع الى ما هو خير وأبقى ، لا تلتفت الى سواه ولا يبهرها بريقه مهما كان خاطفا للأبصار ·

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ١٦٣ ·

ها هم أولاء يعبرون عن استنكارهم لموقف الفريق الأول فيتوجهون اليهم بالزجر والتأنيب « **ويلكم** » ثم يرشدونهم الى الصواب « **ثواب الله خير** » ان ما عند الله خير مما عند قارون · وما عند الله معد « **لمن آمن وعمل صالحا** » فلا تتمنوا ما هو أدنى ، واجتهدوا فى طلب ما هو خير منه بالعمل له · ولتتذكروا أن تلك المنزلة لا ينالها الا الصابرون على مشقة الطاعة ومشقة التعالى على الشهوات وعدم الانقياد لها ·

ونقف عند ما توحى به الآية الكريمة فى تسجيلها لموقف الذين أوتوا العلم ، فهم لم يكتفوا بمقاومة اغراء الزينة لهم واستعلائهم عليها ، بل ألزموا أنفسهم بما هو فوق ذلك بتصديهم للآخرين وارشادهم الى الحق ·وذلك تنبيها على واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو سمة من سمات المجتمع المؤمن المتناصح المتواصى · ولفظ « **ويلكم** » المستعمل فى الزجر والتأنيب يوحى بما فى نفوس العلماء من استعظام واستنكار لموقف الذين يريدون الحياة الدنيا ، وغيرتهم على الحق ، وحرصهم على هداية اخوانهم · واضافة الثواب الى الله ووصفه بأنه « **خير** » ترغيب لحملهم على الاستجابة ، وقوله تعالى « **ولا يلقاها الا الصابرون** » وما فيه من قصر لافادة انه الطريق الوحيد لنيل ما عند الله من ثواب ، فالصبر وضبط النفس وعدم الاستجابة لشهواتها والزامها بحدود الله هو جماع الخير كله ·

« **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** » ·

هكذا عجل الله بنهاية هذا المفسد ، الذى فتن الناس ، وزلزل القيم فى نفوس ضعافهم ، بأن خسف به وبداره الأرض ، فهوى فى بطنها ذليلا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا يغنى عنه من الله شيئا · ولنتأمل النظم الكريم :

« **فخسفنا به وبداره الأرض** » انها النهاية السريعة الخاطفة التى يوحى بسرعتها استعمال « الفاء » فى قوله تعالى « فخسفنا » ولفظ « خسفنا » يصور بجرسه ومعناه حركة ابتلاع الأرض له وتغييبه فيها ، واسناده الى نون العظمة اشارة لقدرة الله تعالى التى لا يستعصى عليها شىء ، وعطف « بداره » على ضميره لافادة أن الخسف قد جمع بينه وبين وما كان يستعلى به ويبغى من الأموال والزينة والأولاد والأعوان للاشارة الى هوان كل ذلك على الله ·

« **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** » · انه نفى لأسباب انتصاره وافلاته من قدرة الله بأبلغ وجه ، حيث نكر « فئة »

وهى واقعة فى سياق النفى فتفيد العموم ، ثم زاد « من » التى تفيد تأكيد نفى أى فئة تنصره ، ثم عرف « المنتصرين » بلام الجنس الدالة على الاستغراق وسلط النفى عليها ليفيد اخراجه من جنس المنتصرين بوجه من الوجوه ٠

« وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون » ٠

لقد كشف ما حاق بقارون الغفلة عن قلوب الذين تمنوا منذ وقت قريب أن يكون لهم مثل ما أوتى قارون ، وذلك عندما اختلت المقاييس فى نفوسهم فحسبوا انه ذو حظ عظيم ٠ فها هم أولاء ـ بعد أن زالت غفلتهم ـ يعبرون عن ندمهم ، بعد أن تنبهوا الى خطئهم ، ويقررون ما أدركوه بعد الكارثة من أن أمر سعة الرزق وضيقه راجع الى مشيئة الله ،،ابتلاء منه بالغنى والفقر ، ويحمدون الله على عدم استجابته لما تمنوه ، والا لهلكوا كما هلك قارون ويدركون الحقيقة وهى انه « **لا يفلح الكافرون** » ٠

ولفظ « الأمس » استعير هنا بمعنى الوقت الماضى القريب ، وحقيقته اليوم السابق على اليوم الذى نحن فيه ، والجامع بين المعنيين المضى فى كل ٠ والاستعارة تحقق الايجاز والايماء الى قرب وقت تمنيهم كأنه كان بالأمس ٠ والتعبير بصيغة المضارع « يقولون » لاستحضار الصورة فى الذهن كأن المشهد يرى ويسمع ما يدور فيه من حوار مبالغة فى التأثير ٠ ولفظ « وى كأن » مركب من « وى » الدالة على التعجب و « كأن » المقيدة للتشبيه ـ على رأى البصريين ، والمعنى «ما أشبه الأمر أن الله يبسط» ٠ أو مركب من « ويك » بمعنى ويلك ، و « أن » والمعنى : اعلم أن الله ، على رأى الكوفيين ٠ وعلى كل فهى تستعمل عند التنبيه على خطأ والتندم عليه (١) فهى اذن صيحة معبرة عن شعور بالندم عندما يجد الانسان نفسه وقد وقع فيما لا يحب أن يقع فيه ، مصورة للمفاجأة التى تنبه على الخطأ وترد الى الصواب ٠

كما يلاحظ التعبير بلفظ « الكافرون » ايماء الى تعظيم جريمة قارون وتشنيعها ، فقد أدخلته فى عداد الكافرين ٠ مع انه لم يجاهر بكفر ٠

---

(١)انظر تفسير أبى السعود ٠

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين · من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون » ·

لقد آن الوقت لتقرير الحق وتثبيته فى القلوب بعد أن انقشعت عنها غشاوة الباطل وتهيأت للتلقى والقبول · والآيات تسوق ذلك فى أنسب وقت وأفضل مناسبة · ولنتأمل النظم الكريم ·

« **تلك الدار الآخرة** » اشارة تعظيم وتفخيم بما تضمنته من معنى البعد وبادخال ـ الـ ـ العهدية ـ كأنه قيل : تلك الدار عالية القدر التى بلغت شأنها ، « **نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** » والتعبير باسم الموصول للنص فى الصلة على أسباب الاستحقاق لما فى الآخرة من خير وقوله تعالى : « **لا يريدون** » للاشارة الى أنه لا يكفى أن يمتنع الانسان عن الفساد والاستعلاء فى الأرض ، بل أن يمتنع أيضا عن مجرد ارادتهما · فلا يخطر فى نفسه هاجس شر أو خاطر استعلاء ·

« **والعاقبة للمتقين** » المراد بالعاقبة ما أعد فى الآخرة من ثواب عظيم وتعريف الطرفين لافادة القصر أى انها العاقبة الحسنة للمتقين دون سواهم·

« **من جاء بالحسنة فله خير منها** » فضلا منه سبحانه وزيادة فى الترغيب ·

« **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون** » عدلا وانصافا · ويلاحظ التعبير بالموصول ، و بـ « السيئات » بدل ضميرها زيادة فى تقبيح صنيعهم بتكرار اسناد السيئة اليهم ·

ويختتم النص بهذا التقرير الذى يلخص مغزى القصة بعد أن ساق أحداثها فى سرد محكم وحوار حى ، ومشاهد شاخصة ، وضمن كل ذلك فيضا من اللمحات الدالة والايحاءات العميقة التى تصور مشاعر النفس وتبرز خواطرها وتكشف عن أسرارها ·

★★★

ثانيا ـ الترهيب بالعذاب فى الآخرة :

قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم · يوم يحمى عليها فى نار**

جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم،هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١)

وردت هاتان الآيتان الكريمتان فى سياق آيات تحرض المؤمنين على قتال الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب · وهم اليهود والنصارى ، وذلك بادعاء اليهود أن عزيرا : ابن الله وادعاء النصارى أن المسيح : ابن الله ، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله يشرعون لهم فيتبعونهم ثم تأتى الآيتان فتبينان حال هؤلاء الأحبار والرهبان الذين يتخذونهم آلهة وتفضح أمرهم ، وأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ثم تتجهان بالترهيب والوعيد لكل من يكنز الأموال ولا ينفقها فى سبيل الله ·وتسوقان هذا الترهيب فى صورة مفزعة تقشعر لهولها الأبدان، وتفزع القلوب · تحذيرا منه سبحانه لعباده علهم يجنبون أنفسهم هذا المصير باستجابتهم لأمر الله وبذل الأموال فى سبيله ·

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » ·

بيان لحال الأحبار والرهبان ، بأن كثيرا منهم يأكلون أموال الناس بالباطل فقد كانوا يأخذون الأموال بطريق الرشوة من الملوك وأصحاب المنافع ليبدلوا أحكام الله ويشرعوا ما يوافق أهواء من يرشونهم·كما يتقاضون أجرا ممن يتقدم لهم للاعتراف بذنبه رجاء غفرانهم له · فقد أعطوا أنفسهم سلطة مغفرة الذنوب زورا وافتراء حتى أصبح ذلك موردا يجنون من ورائه المال الوفير ، وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك والأباطرة · وهذا واقع تاريخى لا ينكر ·

وهم أيضا الى جانب أكل أموال الناس بالباطل يصدون عن سبيل الله بمحاربتهم للاسلام ، أو بصرف أتباعهم عما قررته شرائعهم قبل تحريفها على أيديهم · أو يصدون عن سبيل الله بسلوكهم المعيب ، واقتداء الناس بهم لمكانتهم فيهم · والنظم الكريم يتضمن الى ما سبق لمحات دالة يجب الوقوف عندها ·

---

(١) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ ·

فقوله تعالى «ان كثيرا» دليل على ما يتوخاه القرآن من العدالة والدقة، فلا تكون كراهيتهم سببا فى تجاوز الحق ، ومســـاواة المذنب بالبرىء فى الحكم ، وهذا وحده درس كامل فى السـلوك الفاضل أوحى به هـذا اللفظ للفرد · والتعبير عن أخذ الأموال بقوله « يأكلون » اما على سبيل الاستعارة فقد استعار ـ الأكل ـ للأخذ ـ ثم اشتق منه يأكلون بمعنى يأخذون عـلى سبيل الاستعارة التبعية · والقرينة ايقاع الأكل على الأموال والاســتعارة أقوى فى تقبيح مسلكهم والاشارة الى جشعهم وشراهتهم · واما على سبيل المجاز المرسل · باعتبار الأموال ثمنا للأكل فعبر بها عما يشترى بها ويؤكل والمجاز أيضا فيه مبالغة فى ذمهم ، واشارة الى شرههم كأنهم يأكلون الأموال نفسها لا ما يشـــترى بها · وقوله تعالى « بالباطل » زيادة فى تأكيد ذمهم والتنفير منهم ·

وقوله تعالى : « **ويصدون عن سبيل الله** » بحذف المفعول ، والتعميم فى قوله « **سبيل الله** » يراد به أنهم قد بلغوا فى ذلك الغاية فهو يصـــدق عـلى صدهم اتباعهم عن الاسلام ومنعهم عن اعتناقه ، كما يصدق على صد أتباعهم أيضا عن الدين الحق فى كتبهم ، بتحريفها ، وهو يصدق على ما يبذلونه من جهود لصرف المسلمين أنفسهم عن دينهم بما يثيرونه من شـبه وفتن ، وما تقوم به جماعات التبشـــير ماثل رأى العين ، وهذا الايحاء للتعبير الكريم يفتح عيون الدعاة على الخطر الماثل فى هؤلاء على الدعوة وأصحابها ··· هذا ولا يخفى ما فى الجملة من تأكيدات متتالية بالنداء و ـ أى ـ و ـ ان ـ واللام · لتقرير حقيقة هؤلاء فى النفوس وتثبيت المعنى فى القلوب ·

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ·

قيل ان المراد باسم الموصول هم الأحبار والرهبان الذين يأكلون أمـوال الناس بالباطل ، فيكون مبالغة فى ذمهم بوصفهم بالشح والضن بالمال بعد وصفهم بالجشع فى تحصيله ·

ولكن سياق الآية الكريمة يوحى بأن المراد به هم المسـلمون الكانزون للأموال الذين لا ينفقونها فى ســـبيل الله · فالأحبار والمرهبان عذابهم أليم أنفقوا أو بخلوا · فليس بعد الكفر ذنب ، أما المســـلمون فهم المدعوون الى البذل فى ســـبيل الله المتوجه اليهم بالترهيب والتحذير من الامتناع عنه · ونستأنس لهذا بما روى من أنه لما نزلت كبر ذلك على المسلمين ، فذكر عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « ان الله تعـالى لم يفرض الزكاة

الا ليطيب ما بقى من أموالكم » (١) فالمسلمون علموا انهم المقصودون بها ولكنهم فقط فهموا أن المراد بـ « يكنزون » كل ما ادخر من مال ، فشق عليهم ذلك ، فبين لهم الرسول ان الكنز هو ما لم تؤد زكاته ، ولنتأمل النظم الكريم :

« **والذين يكنزون الذهب والفضة** » على ما رجحناه من أن المراد باسم الموصول هم المسلمون غير المنفقين يكون قرنهم بالأحبار والرهبان الآكلين أموال الناس بالباطل « تغليظا ودلالة على ان من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطى منكم طيب ماله ، ـ هما ـ سواء فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم » (٢) · والتغليظ والمبالغة فى الزجر هما ما يقتضيه مقام الترهيب والاكتفاء بذكر « **الذهب والفضة** » دون بقية أنواع المال لأنها أثمان الأشياء وأصل التمويل ، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر اجناس المال فذكرهما دليل على ماسواهما ·

« **ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » المراد بالانفاق هنا هو : اخراج الزكاة ، فانها الحد الأدنى الذى يجب اخراجه من المال · على سبيل الفرض والالزام كما سبق · واكثر العلماء يرون ان القيام بواجب الزكاة يطهر المال ، ويخرج ما بقى منه عن كونه كنزا يعاقب عليه بما فى الآية من عذاب · وان كان ذلك لا يعنى التقليل من شأن صدقة التطوع فبها تنال الدرجات وتستمطر الرحمات · وفى قوله « فبشرهم » استعارة تهكمية تبعية · فقد استعمل ـ التبشير ـ وحقيقته الاخبار بما يسر ـ فى ـ الانذار ـ بقرينة ـ العذاب ـ ثم اشتق « بشرهم » بمعنى « أنذرهم » والاستعارة أبلغ فى مقام الترهيب بما تتضمنه من تهكم واستخفاف بهم ، « **بعذاب اليم** » تنكير العذاب وما يوحى به من تعظيم لشدته وهوله ، ووصفه بـ « اليم » زيادة فى الترهيب والتحذير ·

« **يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** » تفصيل لما اجمل فى قوله « عذاب أليم » وفى التفصيل بعد الاجمال زيادة ايضاح بذكر ما استشرفت النفوس لمعرفته ، وللتفصيل هنا غرض آخر ، وهو اطالة مشهد العذاب أمام خيال المخاطب قصدا الى تعميق ايحائه فى النفس ، ليكون أقوى على اثارة الرهبة ، وبعث مشاعر الخوف فيها تحقيقا للغاية المرجوة والاستجابة لأمر الله بالانفاق فى سبيله ·

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٥١ ·

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٨٧ ·

« **يوم يحمى عليها فى نار جهنم** » الضمير يعود على الذهب والفضة باعتبار المعنى · لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة ، ويلاحظ ما فى التعبير بقوله « **يوم يحمى عليها** » والأصل « يوم تحمى » وذلك للمبالغة على شدة الحرارة ، فان المعنى : « ان النار تحمى عليها : أى توقد ذات حمى وحر شديد ، من قوله : نار حامية » ولو قيل : يوم تحمى ، لم تعط هذا المعنى (١) ، وانما ذكر الفعل مع انه مسند فى الأصل للنار ، فلما حذفت النار أسند الى الجار والمجرور « عليها » فذكر لذلك · وقوله « نار جهنم » زيادة أيضا فى الدلالة على شدة حرارتها وقوة ايلام الكى بها ، مبالغة فى الترهيب ·

« **فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** » اما أن يكون التعبير بالأعضاء الثلاثة كناية عن شمول العذاب لكل الجسم لأنهم تستغرق جهاته كلها · والتعبير بالكناية أبلغ لتصويرها المعنى وابرازه هنا ليفزع من تخيله المسكون على الانفاق بالاضافة الى أنه يحقق ما سبق أن أشرنا اليه من اطالة عرض مشهد العذاب · او يكون التعبير بهذه الاعضاء لان لها زيادة ارتباط بالتمتع بالمال المكنوز « لأنهم لم يطلبوا بأموالهم ـ حيث لم ينفقوها فى سبيل الله ـ الا الاغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم ، وان يكون ماء وجوههم مصونا عندهم يتلقون بالجميل ويحيون بالاكرام ··· ومن أكل الطيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم (٢) · فكان اختصاص هذه الأعضاء بالذكر لافادة ان عاقبة الامساك عن الانفاق تأتى على النقيض مما يريدون وان ما يصيبها من عذاب فى الآخرة شىء رهيب لا يصح أن يعرضها الانسان له فى سبيل متعة عابرة فى الدنيا ·

ثم التعبير بـ « تكوى » وما يوحى به من ألم ، وكون الكى بعين الكنز « بها » ما يحمل على التخلص مما سيكون أداة لتعذيبه بانفاقه فى أبواب الخير · والتعبير بصيغة المضارع « تكوى » لاستحضار الصورة كأنها ماثلة زيادة فى الترهيب بما تثيره من فزع وهلع فى القلوب ·

« **هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** » الاشارة هنا الى ماتقدم من تفصيل العذاب ، وهو على ارادة القول : أى يقال لهم : « هذا ··»

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ·

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٨٨ ·

وفى هذا التعقيب على مشهد العذاب توبيخ وتحسير لهم ، ليضيف الى الألم المادى للعذاب الألم المعنوى الذى يذيب القلوب حسرات ٠

ويلاحظ ما فى التعبير بـ « هذا » للاشارة الدالة على القرب ، لتخييل أن العذاب كأنه قريب حاضر يشار اليه ، وما فى قوله « لأنفسكم » من توبيخ فما كنزوه لمنفعة أنفسهم ينقلب أذى لها وعذابا ، ويجدون فيه نقيض ما أرادوا وفى التعبير بـ « ذوقوا » استعارة فالعذاب لا يذاق ولكنه استعارة للتعبير عن الاحساس بالعذاب ، والاستعارة أقوى لأنها تصور المعنى وتجعله شيئا ملموسا مذاقا ، وهو أبلغ فى الترهيب ٠ وما فى التعبير من ايجاز بالحذف فالتقدير ، جزاء ماكنزتم اى فذوقوا جزاء ما كنتم تكنزون والحذف أبلغ لأنه يجعل المذاق هو ماكنزوه نفسه لا جزاؤه وذلك يحمل على انفاقه حتى لا يتحول عذابا يذاق ٠

وينتهى المشهد المفزع بهذا التعقيب المحسر ، الذى يهز النفس من اعماقها ويحطم كل مقاومة لديها فى الامتناع عن البذل والانفاق ٠ وهذا دور اسلوب الترهيب فى تقويم النفس وتزكيتها ٠

وبعد ٠٠ فهذه اساليب القرآن الكريم فى الدعوة الى الانفاق ، وهى كما رأينا لا تكتفى فيها بالامر والنهى بل تسوق ذلك محاطا بما يبرىء النفس ويحذرها من الشر ويرهبها من الاقدام عليه ، متخذا البلاغة سلاحا يصل به الى ما يريد فيبلغ الغاية ويصيب الهدف ٠

فالى مجال آخر من مجالات الدعوة القرآنية ٠

★★★